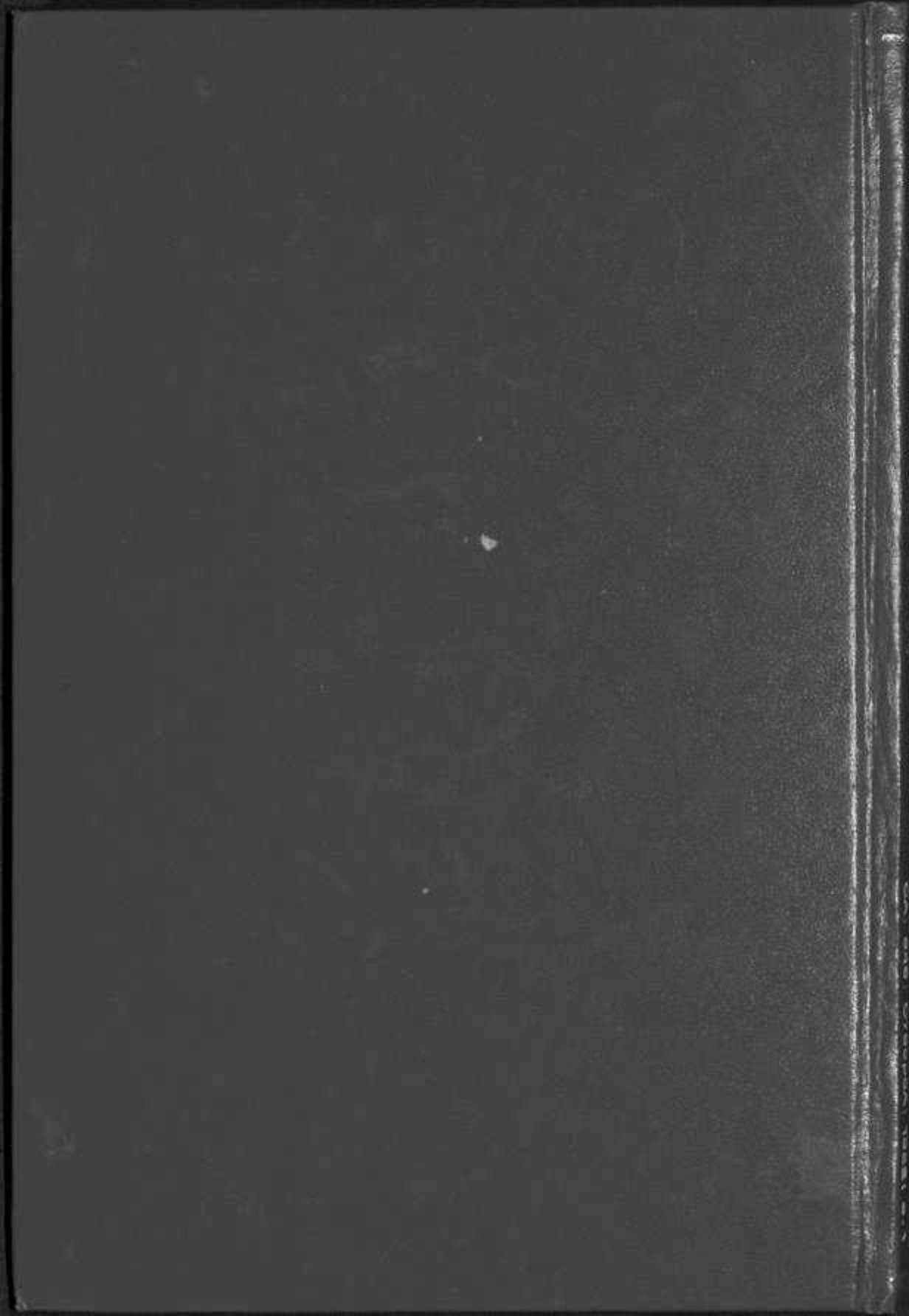


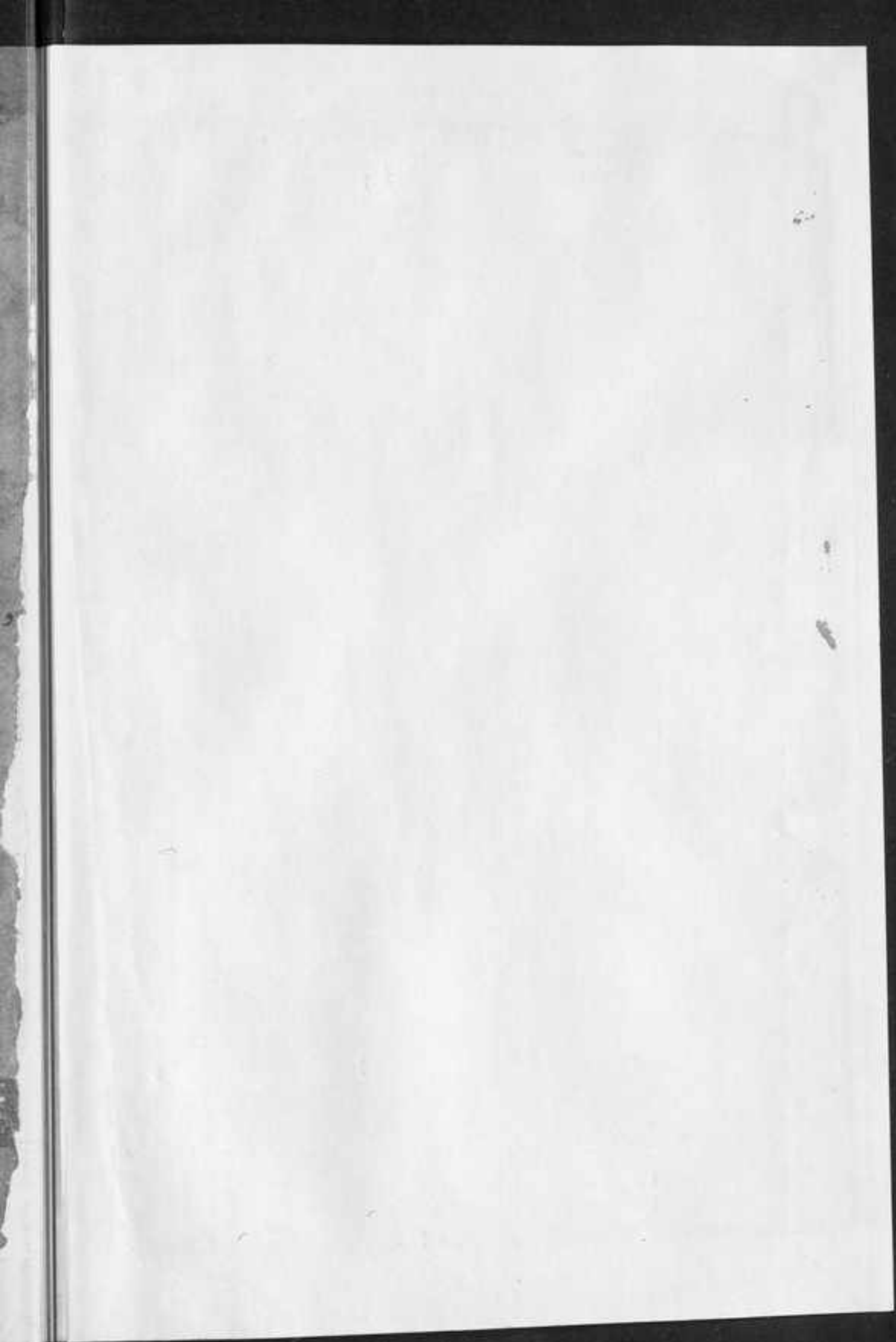


A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY



رواية

في سبيل السلام

بقلم
مصطفى الطفي النفاوي

وهي خلاصة رواية غشبية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرانسوا ماسيويه

مع بعض تصرف

(عقود الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الثالثة)

أول يناير سنة ١٩٢٢

تطلب من المكتبة العامة في شارع محمد علي
في القاهرة ما لا يقل عن خمسة جنيهات

التمن ١٠ قروش صاغ

وأجرة البريد قرشان

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٢

الطبعة الثانية سنة ١٩٢٣



811
M1~~14~~

CA
848
C785^{potl}
1922
C.1

رَوَايَةُ

فِي سَبِيلِ التَّحْقِيقِ

بقلم
مصطفى الطفي المنفوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرانسوا كوييه

مع بعض تصرف

(حقوق الطابع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الثالثة)

أول يناير سنة ١٩٢٢

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بصر
المصاحف مصطفى محمد

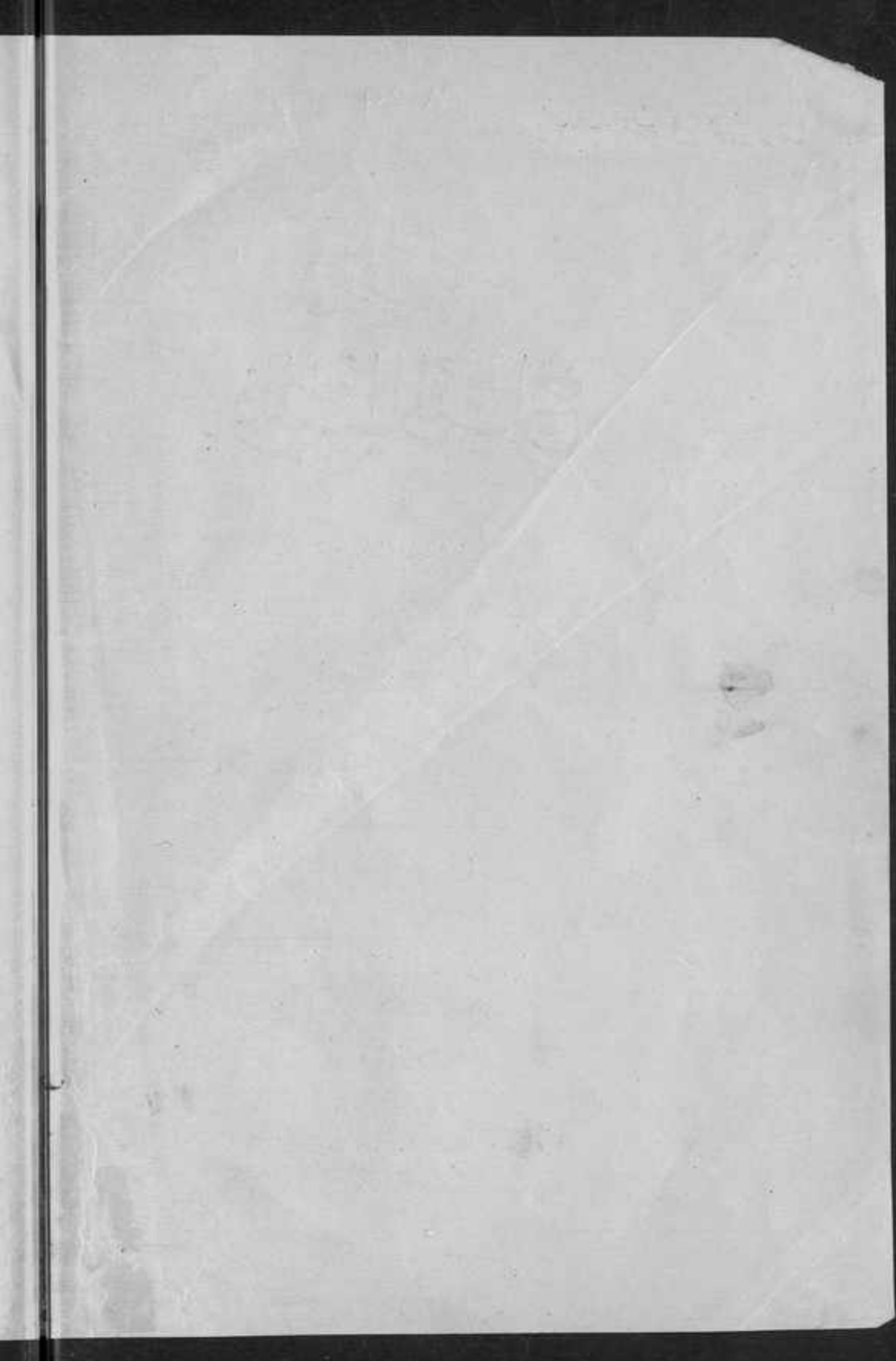
الثن ١٠ فروش صاغ

وأجرة البريد قرشان

الطبعة الثالثة
المصاحف مصطفى محمد
طبع في مصر

مكتبة زينة دار الكتب المصرية

سنة ١٩٢٢



أهداء الرواية

إلى البطل المصرى العظيم

سعد زغلول باشا

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية قد
 « جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة
 « والاخلاص والتضحية ما جَمَعَ لك منها ، فأذن لى أن أهدي
 « روايته اليك ، وأن أقدم البطل البلقانى ، الى البطل المصرى ،
 « لأنس روح كل منكب بروح صاحبه ، وان باعد بينكما الزمن ،
 « واختلفت بكما الدار ، فان تفضلت بقبول هديتى وما أحسبك
 « ضائناً بذلك على فلنكن جائزنى عندك عليها أن تشهد لى بينك
 « وبين نفسك أننى قد وضعتُ لَبِنَةً^(١) صغيرة فى ذلك البناء
 « الضخم الذى شدته لامتك ووطنك ، وحسبى ذلك وكفى »

أول يونيه سنة ١٩٢٠

مصطفى لطفي

النفوطى

(١) اللبنة واحدة اللبن ككلمة وكلم وهو المضروب من الطين مربعا للبناء

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير

حسن بك الفاضل

انصرفت عقول الكتاب والمفكرين في هذه الايام وفي
جميع البلاد الى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية
التي أوجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام وراء العقول
تحاول انارة السبيل لقادة الشعوب عليهم يستطيعون اقالة هذا
العالم من عثرته .

ولقد كان من جراء ذلك أن أهمل الأدب اهمالاً نزل به إلى
مرتبة دون التي كان يشغلها في نفوس القراء والمؤلفين فانحط
التأليف الادبي انحطاطاً قد يستمر ما استمرت حالة العالم على
ماهي عليه .

ولم يكن تأثير هذه الازمة الأدبية في مصر بأقل منه
في غيرها إذ انصرف معظم الأدباء عن فهم وعلى الاخص
في السنة الاخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى فانقطع
ظهور الكتب الادبية أو كاد وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق
أبوابها لقلّة ما يقدم اليها من الروايات ورأت صحف الادب

أن لا بقاء لها إلا إذا ولت وجهها شطر السياسة فوقفت جل
أعمدتها على شرح وتأويل ما يحمله الينا البرق من الاخبار، وبذلك
وقفت نهضتنا الادبية منتظرة أن تمر العاصفة وتصفو السماء
فتستأنف سيرها ويعود اليها عزها ونشاطها ، بيد أن العناية
الساهرة على الفنون قد أبت أن تذبل شجرة الادب في مصر
ولما تينع أزهارها فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتاب
بل أبت للأدب أئمة وأنصاره فلم يؤنسهم شغف الجمهور
يسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها وظلوا رافعين لواء فهم
في وسط الزوابع والاعصار عالمين أن الادب أفيد غذاء لروح
الأمة وعقلها وأكبر مذهب لأحاسيسها وشعورها

في طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه لا أترد في ذكر
اسم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى لم يبخل على قرائه
العديدين بأوقاف فراغه فوقفها على الكتابة والتأليف ولم تحل
أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج للناس بضع
مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة « في سبيل التاج »
التي نقدم اليوم طبعها الثالثة الى جمهور القارئ



فرانسوا كوييه مؤلف « في سبيل التاج » شاعر عرك

صروف الزمان وجس بأصبعه مصائب الانسان فلم تزد قلبه
مناظر البؤس والفاقة إلا ليناً وحناناً حتى ان القارىء لا يرى
في شعره إلا عبرة حارة أرسلتها عيناه اشفاقاً وحنواً على الذين
تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة حتى لقبه عارفوه بحق
« معزى المنكودين والبائسين » ، وشاعر الضعفاء والمحزونين »
ولد كوييه سنة ١٨٤٢ ولم تمكنه بنيته السقيمة من تشييم
دراسته فانقطع عن تلقى الدرس في معاهد العلم وانصرف الى
قراءة الكتب والاطلاع على أوضاع الاقدمين ، وكان يشعر
بميل شديد غريزي الى الشعر فنظم منه بضع قصائد لم تصادف
اعجاباً من الذين أشمهم إياها فرأى أن النار أحق بها من المذابحة
فأحرقها وطاق الشعر وهجر الادب وسمى حتى حصل على وظيفة
في الحكومة استولى عليها ظناً انه لم يخلق لصناعة القلم وان
رغبته في الشعر ما هي الا نزعة مفتون تصبو نفسه إلا مالا قبل
له به ولا طاقة له عليه .

يبد أن الفطرة مالبثت حتى غلبت اليأس في نفس الشاب
فماد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه في الغد حتى وفق
لكتابة « صندوق البقايا المقدسة La Reliquaire » ونشره بين
الناس فصادف رواجاً وإقبالاً شجعاه على الاستمرار والمثابرة

وزاده تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفي الحفلات وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت بشأنه إحدى الممثلات الشهيرات « مدام أجار » ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلي فنصحت اليه بكتابة شيء للمسرح فعمل بنصيحتها وكتب « عابر السبيل » « Le passant » وهي رواية ذات فصل واحد ما كادت تظهر حتى تخاطفها المسارح ومثلتها سارا برنار فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتباً شعرية متتابعة أهمها « المودات intimités » و « اعتصاب الحدادين » و « المتواضعون » وبعض قصص نثرية منها « المجرم » و « شبوية Tou e une jeunesse » وكثير من الروايات التمثيلية نخص بالذكر منها « عواد كريمون Lo Luthier de Grémone » و « مدام ده مانقنون » و « سيفيرو نوريلي » و « في سبيل التاج »

وفي عام ١٨٨٤ انتخب عضواً بجمع علماء فرنساشم انكب على السياسة وسار فيها شوطاً بعيداً كاد ينسيه الشعر والادب وتوفي سنة ١٩٠٨ وهو رئيس فخري لجمعية الوطن الفرنسية هذا ماخص حياة ذلك الشاعر النابغة التي امتاز على أقرانه

بأنه لم يقلد أحداً من الاوائل ولا من المعاصرين (والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعر من الشعراء) وبأن معظم المواضيع التي طرفها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم اليها قبله أحد من المؤلفين .
ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه :

« ان نفثات قلم هذا الشاعر قد أثرت في جميع القلوب وتمكنت منها ، لان أساسها الطبيعة ، وأحسن ما يبرع في الكتابة عنه ويصل فيه إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس بالمشاعر والاخلاق الاعتيادية والحقائق الواقعة ، وهذا النوع من الكتابة لا يتيسر إلا لاصحاب الاذواق السليمة والذكاء المتوقد الخارق وهو يحتاج إلى مهارة فائقة وبراعة زائدة ، فان أقل خطأ فيه لا يلبث أن يبدو للعيان مجسماً وإن كان في استطاعة كل انسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ولكن لا يستطيع أن يسبر كنهه ويتذوق طعم أدبه إلا من رزق حظاً وافراً من العلم والذوق السليم ، وبالجمله فقرأه هذا الشاعر العظيم كثيرون جداً ومن جميع الطبقات ولكن قراءه الحقيقيين قليلون »

أما رواية « في سبيل التاج » التي نحن بصددتها فمأساة
شعرية تمثيلية وضعها المؤلف في سنة ١٨٩٥ وأراد أن يجارى بها
عميدى الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر كورني وراسين وهي
رواية أخلاقية بطلها فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان :
حب الأسرة وحب الوطن فضحى الأولى فداءً للثانية ثم ضحى
حياته فداءً لشرف الأسرة ، ولقد تجلت في هذه المأساة عبقرية
الشاعر ومواهبه الكبيرة فالأسلوب سهل ممتنع والأفكار متسلسلة
متناسكة والوفائع جلية واضحة وأخلاق أشخاص الرواية تفسرها
أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا إبهام

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذا المأساة مذاهب شتى حتى قال
بعضهم إنها خير ما أخرج للناس من عهد « راسين » إلى يوم ظهورها
قال الأستاذ إميل فاجيه العضو بالمجمع العالمي الفرنسي عن
هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه « آراء في التمثيل » ما معناه :
إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوة والمتانة
والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير أمكننا أن نحكم
بأن هذه الرواية ستمثل إلى ما شاء الله بدون أن يملها الجمهور أو
يشعر بسأم من سماعها وإن فرانسوا كوبيه بكتابه للفصل الثالث
منها على الأخص قد ضمن لذكره الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة ،

وهو الفصل المعنون في التعريب بعنوان الجريمة

وقال الاستاذ جول لومتر العضو بالمجمع العلمى الفرنسى

في الجزء التاسع من كتابه «خواطير في التمثيل» بعد أن أطنب

في وصف شاعرية كوييه وفي تقدير مواهبه : ان رواية

« في سبيل التاج » لهي من صنع فني قدير وشاعر عظيم ورجل

ذى ضمير حى وقاب كبير واذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص

لم يخل منه كورنى ولا فيكتور هوجو ولا غيرهما من كبار الفنيين

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : ان المشاهد

لتمثيل رواية « في سبيل التاج » ليسع من ذى الهنية الاولى براحة

واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشهد عملاً متقناً وفناً

نظيفاً ولقد يكون أحسن ما في هذه القطعة تنسيق الأفكار وتحليل

العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والاشخاص :

هذا رأى كبيرين من زعماء الحركة الادبية في فرنسا نوره

هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الادباء في الغرب

ومبلغ تقديرهم لؤلؤها

ولقد تناول السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هذه المسألة

ونقل موضوعها الى اللغة العربية في قالب روائى جميل بعد أن

أضاف اليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقرائه قصة

يستهوئ أسلوبها الفلوب وتسترعى وقائعها الالباب بقلم عذب
وعبارة رقيقة وديباجة بدیعة لانطیل الكلام فی وصفها لان قراء
العربية جميعاً يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفتنه
أن ينقل الى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارئ أن يتبين
منها قوة المؤلف ، ومع أن الرواية ملخصة تلخيصاً فقد استطاع
الكاتب بمهارة فائقة أن يصور الروح الاصلية للمؤلف تصويراً
مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملكه فرانسوا كوبيه
من نفوس قراء الفرنسية

ولا يفوتنا هنا أن نقول ان الكاتب قد اشتغل بتلخيص
هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحى اليه
الحوادث السياسية التي لا تزال ماثلة في الأذهان صفحات تفيض
وطنية وغيره حتى لكأنه قد أفضى الى أمته في هذا الكتاب
بكثير مما لم يستطع كتابته في الصحف السياسية ، والحق أقول
إننا كثيراً ما كنا نعتب عليه في سكوته عن الاشتراك بقلمه مع
العامة في هذه الحركة حتى قرأنا له هذه الرواية فاذا روحه الوطنية
الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلاً وإذا الرواية رواية الحركة
الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها
وبالجملة فرواية « في سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة

في ثوب قصة خيالية تملك لب القارئ بجمالها وتتولى تهذيب
نفسه بآدابها وفضائلها ، وما أوجبنا أن تجرى الأقلام الأدبية
في هذا العصر بمنزل ما جرى به قلم السيد المنفلوطي في هذه المأساة
المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنية من طريق العواطف
والوجدان ، وقامنا تصل الوطنية إلى اعماق القلوب وتمغلغل
في شغافها الا من هذا الطريق م

أول يونيه سنة ١٩٢٠ حسن الشريف



مقدم

لا يزال التاريخ يحفظ في صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع
الحربية الهائلة التي وقعت في القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية
والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانية تريد افتتاحها
والاستيلاء عليها فدافعت الثانية عن نفسها دفاعاً مجيداً استمر
زمنًا طويلاً حتى غلبت على أمرها فسقطت في يد القوة القاهرة
ودخل الترك أرض البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا
على أهلها الاتاوات الثقيلة وعزلوا ملكها الذي كان يحاربهم ويناوشهم
وملكوا عليها ملكاً من أهلها اسمه « ميلوش » فلبثت في حكم
الأتراك عهداً طويلاً عانت فيه من ضروب الذل والهوان
ما يعانیه كل شعب مغلوب على أمره ، حتى قيض الله لها رجلاً
من رجال الدين المخلصين اسمه الاسقف « أتین » عز عليه ضياع
بلاده وسقوطها في يد أعدائها وان تتحول فيها الكنائس الى
مساجد وتجار في أرجائها أصوات المؤذنين بدلا من أصوات

النواقيس وأن لا يجد المسيحيون في عقر ديارهم مكانا يؤدون فيه
فروض صلواتهم غير الصحارى والفلوات فأخذ يتنقل في أرجاء
البلاد ويمشى بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرة والوطنية
أخرى ويستنهض هم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم
من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الامة كلها من حوله
على اختلاف عناصرها ومذاهبها : وكذلك تنفق كلمة الامة أمام
الخطر الدائم والقضاء الشامل

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من
بلادهم ويمتنع عن دفع الجزية والأتاوة وينادى بحرية البلقان
واستقلاله فبين الملك عن ذلك في أول الامر ثم أسلس له وأذن
لرأيه ففعل ما أشار به عليه ، فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستنار
حقدهم وضغينتهم فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيماً وافر
العدة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام « أرطغرل » باشا فتار
البلقانيون جميعاً رجالاً ونساء للدفاع عن أنفسهم والنود عن
وطنهم واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغاري العظيم الأمير
« ميشيل برانكو مير » فظل يحارب الأتراك عدة أعوام يدال
له عليهم فيها ويدال لهم عليه ولكنهم لا يستطيعون اجتياز حدود

بلاده واقتحام جبالها حتى عى القائد التركي بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه الا من طريق الدسيسة والكيد وكذلك فعل

﴿الجالسوس﴾

اجتمع جنود الفرقة البلقانية الاولى ذات ليلة في معسكرهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقى البوهيمى المسكين « بانكو » الذى كان يفد الى معسكرهم كل ليلة يغنيهم قطعاً حماسية مؤثرة يذكركم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون على غنائه ويطربون ويحسنون اليه بما فضل من زادهم وشرابهم ، ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذى حدث في بلادهم منذ أيام وهو موت الملك « ميلوش » وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده فانقسموا في رأيهم قسمين ، فريق يرى اختيار الاسقف « أتين » وفريق يرى اختيار القائد « برانكومير » فقال الجندى الرومانى « أورش » وهو من أشياع الاسقف وأنصاره : نعم إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكومير ولكن من الذى مهد له النصر وأعد له عدته قبل أن يُعقد له اللواء على الجيش ؟ أليس الاسقف أتين ؟

من الذى ينكر أن ذلك الرجل التقى الصالح هو الذى طاف
البلاد من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم
ويستثير حفاظ النفوس ويستحيي ميت العزائم ويهيج عاطفة
الثأر والانتقام في نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات ويُلقي
على تلاميذ المدارس في مدارسهم أناشيد الحرية والوطنية
فيستظفرونها مع دروسهم ويتغنون بها في مسارحهم وملاعبهم
ومنداحهم ومراحهم؟

من الذى ينكر أنه هو الذى علم الشعب البلقاني دروس
الوطنية الشريفة العالية ونرس في قلوبهم أن الحياة الدليلة خير
منها الموت الزؤام، وأن الحرية حياة الأمم وروحها، والرق موتها
وفناءها، وأن الأمة التي ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل
أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أخط الأمم وأذلها وأحقها
بالزوال والفناء؟

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح الوطنية
العالية ويعلّي عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة حتى صفت
ضماؤهم من أدران الذل والمهانة وأدركوا من معنى الحياة مالم
يكن يدركه آبائهم من قبل، فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن

وذاذته يبذلون في سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم مالا
يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة في سبيل الذود عن مجدها
والدفاع عن حريتها واستقلالها ويتقدمون إلى الموت زرافات
ووحداً فرحين مهتللين كأنهم ذاهبون إلى مراقص « فيدين »
وملاعبها ، لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التي يبذلونها في
سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمر الذي تُسجل
لهم به في صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار ، وأن الأشلاء التي
ينثرونها في تربة وطنهم ثم يسقونها من دماهم إنما هي البذور
الطيبة التي أنبتت لبلادهم المستقبل الحر الشريف

من منا يجهل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء
البلقان جميعاً أن يقف أمام ملكه وقفة الأسد المصور ويصيح
في وجهه قائلاً له : حتى متى أيها الملك الضعيف المهين تبيع وطنك
وأبناءه لأعدائك وأعدائه يبيع السلع المعروضة في حوانيت التجار
بأنجنس الاثمان وأدناها ؟ وإلى م تضيع هذه السلاسل والاغلال
في أعناق أبناء أمتك لتقودهم بها إلى حيث يمرغون جباههم
الشريفة تحت مواطئ أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين
ضارعين ثم تزعم بعد ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش
شريف ولو حققت أمرك لعامت أنك نخاس ذنى ، يبيع الرقيق

في سوق النخاسة ، بل أدنى من نخاس ، لأن النخاس لا يتجر في أبناء
أمته ولا في أفراد أسرته ، فاهتز الملك لكلمته هذه اهتزاز القصب
الجوفاء بين مهاب الرياح وطأطأ لها رأسه إجلالاً وإعظاماً ولم يلبث
أن عزم عزيمته الشريفة التي ترونها اليوم والتي أنقذت الوطن من
العار ، ورفعته الى ذروة المجد والفخر

وهنا ضج القوم جميعاً ضجة السرور والاستحسان وضاحوا
أحسنتم يا أورش ، أحسنتم إحساناً عظيماً ، الآن فرأى قليلاً
من أشياع القائد وصنائه فانهم امتعضوا لهذه الكلمة وغصوا
بها ، وقام أحدهم واسمه « لازار » وكان الحارس الخاص بقصر القائد
وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة « بازيليد » وطلب الاذن
في الكلام فأذنوا له فقال : إني لا أريد أن أعترض على صديق
« أورش » في كلمته التي قالها في فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل
في خدمة الدين والوطن ، ولكن الذي أراه واستصوبه أن لرجال
الدين شؤوناً خاصة بهم لا يجمل بكرامتهم أن يتعدوها الى غيرها
من أعمال الحياة ، وإني أضمن بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل
الملك وملاهيته عن شؤون الدين التي نصب لها نفسه طول حياته ،
والرأي الذي أراه أن يعهد بالملك الى القائد « ميشيل برانكو مير »
ليقود الأمة جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التي قاد بها

الجيش ورفعته الى مناط السماء الأعلى ، فاعترضه جندى كان جالساً على مقربة منه وقال له ولم لاتصن بالقائد ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيهِ عما هو بسبيله من قيادة الجيش وتدير شؤونه؟ فأجاب إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان لأنهما يتعلقان بشؤون الحياة وأعمالها ، أما الشؤون الدينية فلا علاقة لها بالشؤون الدينية بحال من الاحوال ، فدعوا الكاهن مستريحاً في معبده مستغرقاً في صلواته وعبادته واختاروا للمسككم رجل الأُمة وبطلها وحامى دمارها وحماها الامير برانكومير ، فعلت أصوات الصاخبين والصائحين والمستحسنين والمستهجنين وذهب كل في صيحته المذهب الذى يراه ويتشيع له

وانهم كذلك إذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول : استمعوا منى أيها القوم كلمة واحدة هي فصل الخطاب في قضيتكم هذه ولا أطلب اليكم أن تستمعوا منى سواها ، فالتفت الجمع فاذا الضابط « ألبير » وهو جندى شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيراً وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته ولم يفارقه الا منذ عامين اثنين أى بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ، فانصتوا اليه فاذا هو يقول « أنتم تعلمون جميعاً صلتى بالقائد برانكومير ومكانتى عنده وانى أعرف من

شؤونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحد غيري ، ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وسجاياه بعد تجربة عشرين عاماً قضيتها في خدمته انه أبعد الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودناياها وانه جندي صميم معتر بجنديته وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أى مظهر من مظاهر الحياة معها علا شأنه وعلت قيمته ، فمن ظن منكم أنه يرضيه وبجامله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ في ظنه خطأ عظيماً ، وان كان للأسقف « آتين » مزاحم على الملك بين أشرف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكو مير » ، فهذات الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة الرزينة التي ينطق بها جندي شريف صادق وكادت تكون فصل الخطاب في القضية لولا ان « أورش » وهو ذلك الجندي المتشيع الأسقف والداعى له قد نهض من مكانه مرة أخرى ونظر الى الجندي البير مبتسماً بتسامية الهزء والسخرية وقال له : نعم يا سيدى إنك صادق فيما تقول لم تزده حرفاً على ما تعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لى أن أقول لك إنك انما تحدث في كلامك عن الماضى القديم الذى حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً ، فان أذنت لى حدثتك عنه وقلت لك إن الأمير برانكو مير اليوم غيره بالأمس ، وان

تلك النفس العالية المترفعة التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحوالت اليوم الى نفس تواقفة متطلعة تصبو الى المعالي وتفتتن بالعروش وأنه هو الذي يدعو بنفسه الى نفسه ويرسل الدعاة في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك ، فاستطير « ألبير » غضباً وقال أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وأنه قد أصبح رجلاً صغير النفس متبذلاً ، قال لا ، مالى هذا ذهبت ، ولكنى أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقاداً في شؤون حياته لرأى غيره لا لرأى نفسه ، وربما لو ترك وشأنه لكانت له في حياته خطة غير هذه الخطة التي ينتهجها اليوم ، فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم في وجوه بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان وسمع الخطيب اسم « قسطنطين » يتردد مراراً في أفواه الهامسين فصاح في القوم : أنتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون اليه ، فان ابن قائدنا وزهرة شبيبته واضابط فرقتنا أعلى همة مما تظنون ، فصرخ لازار : قل من هو الشخص الذي تريد ، مجلس « أورش » ولم يقل شيئاً ، الا أنه همس في أذن جندي كان بجانبه « الزوجة الجديدة » ، فسرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء في أسلاكها حتى بلغت مسمع الموسيقار « بانكو » فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ، لأنه لم يكن

موسيقاراً بوهيمياً كما زعم ، ولم يكن اسمه « بانسكو » كما يسمونه بل هو الضابط المشهور ابراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركي العظيم أرطغرل باشا ، وقد وجد في هذه الكلمة التي سمعها ما كان يريد أن يكون وعثر بالثلمة التي ينحدر منها الى أغراضه وما ربه وما آوى القوم الى مضاجعهم وأخذ النوم بمعاقده أجفانهم حتى دب ذلك الجاسوس المتشكر على يديه حتى بلغ مضجع الجندي « لازار » حارس قصر القائد وموضع ثقته وأكبر أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس في أذنه ساعة طويلة كان يتردد فيها اسم الأميرة « بازيليد » زوجة القائد الجديد حتى تمّ لهما الاتفاق على ما يريدان ، ثمّ أسلما عيونهما الى السكري فنادما

﴿ قسطنطين ﴾

توفيت زوجة الأمير برانكومير منذ صاميين وكانت امرأة من النساء الصالحات الفاتنات ذوات النفوس العالية والهمم الكبرى ، فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الاخلاق الكريمة كما ورث عن أبيه صفات الشجاعة والعزيمة والصبر واحتمال المكاره في سبيل خدمة الوطن والأمة فكان خير ابن خير أب وأم ، وكان يد أبيه اليمنى ودرعه الواقية الأمانة في جميع وقائعهم ومشاهدته حتى ذاع صيته في جميع أنحاء المملكة وأحبه الشعب والجند حباً كاد

يرفعه الى ما فوق منزلة أبيه لولا حرمة الأبوة وجلال الشيخوخة ومكان التاريخ، فلما ماتت أمه تزوج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها « بازيليد » يقال إنها من سلالة قياصرة بيزنطية « القسطنطينية » وهي فتاة جميلة ساحرة تستهوى القوب وتختلب الأبواب ذات نظرات غريبة لامعة يقضى المتفرس فيها حين يراها أنها نظرات مريبة ألفت الاختلاب والافتتان من عهد بعيد، فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منه أحد من قبلها ولا من بعدها حتى زوجته الصالحة وولده النجيب، فاصبح مستهماً بها مستسلماً اليها، لا يصدع إلا بأمرها، ولا يصدر إلا عن رأيها، ولا يرى حلو العيش وجماله إلا بجانبها، ولا يستروح رائحة السعادة والهناء إلا اذا هبت عليه من ناحيتها، وكانت امرأة طموحة متطلعة لا يعنىها من شؤون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة ولا يغلب على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آباؤها وأجدادها ومصارع قومها في « بيزنطية » بيد الأتراك الفاتحين، وكانت لا تزال تتحدث في مجالسها العامة والخاصة بنبوءة قديمة تنبأ لها بعض المتنبيين، وبجملها أن كاهنًا عرافًا دخل منزل أبيها وهي طفلة لعوب لا تزال تحوم حول مهداها فنظر اليها طويلاً ثم قال لأُمها « إن ابنتك هذه ستكون ملكة

عظيمة الشأن في مستقبل أيامها» وربما كان اهتمامها بهذه النبوءة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها الزواج من شيخ هرم مدبر قلماً يُعنى بمثله مثلها على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانها

فظلت تفرس في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مدة من الزمان وتسقيها بماء حسنها وجمالها حتى ملأت بها فضاء قلبه وشغلته بها عن كل شاغل سواها

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك «ميلوش» وجاءت الساعة التي تنتظرها، ففتفت به : ها قد حانت الفرصة التي كنا نرقبها، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التي تنبأ لي بها، وما هو بالكاذب ولا المتخرفص، ثم زجّت به في طريق مزاحمة الأسقف «أتين» على الملك فانقاد لها ومشى في الطريق التي رسمتها له وأخذ يدعو الناس لنفسه وليستكثر من سواد أشياعه وأنصاره ويدخل أعضاء الجمعية الوطنية ويداهنهم ويتوسل اليهم أن يساعده على نيل أمنيته التي يرجوها مديلاً بمكانته من خدمة الأمة والوطن وأيديه في الذود عنهما وبما بذل من صحته وشبابه في مقاتلة الأعداء ومدافعهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدى إلى القبر

هذا ما كان يشغل القائدَ وزوجته في ذلك التاريخ ، أما ابنةُ قسطنطين فكان بعزل عن هذا كله ، فان وفاة أمه التي كان يحبها حباً شديداً تركت في نفسه أثراً من الحزن لا يبلى ، وملاّت فضاء حياته هما ونكداً ، وكان يحذ بعض العزاء عن ذلك الهم الذي نزل به في حنان أبيه عليه وعنايته به حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم إليها نفسه وقلبه ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كل أمل له في الحياة ، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتم التي يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفئدة عاطفة

فكان يخاطر بنفسه في المعارك التي يحضرها مخاطرة اليأس المستنقل راجياً أن يريحه الموت من هموم نفسه وآلامها ، فزج بنفسه ذات يوم في معركة كبرى استبسل فيها استبسالاً عظيماً واستنقل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبه فلم يبلغ أمنيته التي يتمناها ، ولكنه انتصر في تلك المعركة انتصاراً باهراً وأنقذ من يد الترك شعب « تراجان » وكان الملجأ العظيم لهم والمركز الأكبر لحركاتهم وأعمالهم

وانه ليتأثر الجيشُ المنهزم ويشتد في أعقابه إذ لمح على البعد فارساً تركياً قابضاً ييده على شعر فتاة مسكينة يريد اقتسارها

واكرهها على الركوب معه وهي تمتنع وتتأني وتحاول الافلات
من يده فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً وجيعاً ، فأزعجه هذا المنظر
وألمه فركض جواده حتى أدرك ذلك الفارس فضربه على هامته
بسيفه ضربة قضت عليه ، فركعت الفتاة بين يديه ضارعة تسأله
أن ينقذها من شقاءها ويقودها معه الى حيث يشاء ، فرثي لحالها
وأحزنه منظرها دون أن يعلم من أمرها شيئاً ، فأردفها خلفه
وركض بها حتى بلغ موضع الخيام فتركها بين الاسرى وعاد
من تلك الموقعة ظافراً منصوراً يهتفه الشعب ويهتف له في كل
مكان يمر به حتى وصل الى القلعة الكبرى فدخل على أبيه وألقى
بين يديه الاعلام التي غنمها في المعركة فأمر برانكومير بقتل
الاسرى وكان ذلك شأنه فيهم كلما قدموا اليه حتى جاء دور الفتاة
فجثت بين يديه ومدت اليه يدها مستغيثة تطلب العفو وتقول
له إنها فتاة نورية مسكينة لاشأن لها في الحرب ولا علاقة لها
بأهلها وإن أمها باعنها منذ عامين من جندي تركي أساء عشرتها
وعذبها عذاباً ألماً حتى قبض الله لها هذا الفتى الكريم فاستنقذها
من يده ، وأشارت الى قسطنطين

فركع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له انني قد
أنقذت حياتها بالألمس فأنقذ أنت حياتها اليوم واجعلها حصتي

الوحيدة من الغنيمة وأعدك انى لأطلب غنيمة سواها ، فأحفظ ذلك قلب الاميرة « بازيليد » زوج أبيه وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت اليه نظرة الازدراء والاحتقار وكان هذا شأنها معه كلما التقت به وأنشأت تنعى عليه اهتمامه بشأن فتاة نورية راقصة طريفة غابات وفلوات ، وريبة حانات ومعسكرات ، وقالت له ، لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجندى الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تلقى بمثلها الى حارس من حراس بابك أو جندى من جنودك يتأهى بها كما يتأهى الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله بدلاً من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها الدينية الساقطة

فثارت ثورة الغضب فى نفسه وأضعفه عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف وكان يعلم من شؤون نفسها وخبايا قلبها مالا تظن أنه يعرف شيئاً منه فنظر اليها نظرة شذراء ملتبهية وقال لها وهو يعلم ان ماسيقوله سيغضبها ويؤلمها ويملأ صدرها غصّة وحنقاً : ان الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا تراباً لنا تدوسه أقدامنا وتطأه نعالنا كلما وجدنا الى ذلك سبيلاً ، ولم يمنحنا القوة والعزة لتتخذ منهما أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم ، ونستنزف بها دماءهم ، وكل ذنوبهم عندنا انهم أذلاء مستضعفون لا يملكون

من القوة والعزة مثما تملك ، ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما يذود
وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا أو أعز وأقوى
منا لخفناهم واتفقنا جانبهم ونظرنا اليهم بعين غير العين التي ننظر بها
اليهم اليوم ، لأن القوى الذي يتنمر على الضعفاء لا بد أن يكون
جباناً ذليلاً أمام الأقوياء

اننا الآن في حرب مع عدو قاهر جبار ننقم منه جوره
وظلمه واستضعافه إيانا واستطالته علينا بقوته وكثرته ، فخير بنا
أن لا نفعل ما ننقمه منه ونأخذه به ، عسى أن يرحمنا الله
وينظر إلينا بعين عدله وإحسانه ويتصف لضعفنا من قوته ،
وقلتنا من كثرته

إنا لآنحمل هذه السيوف على عواتقنا لنقتل بها النساء والأطفال
والضعفاء والعزل الذين لا سلاح لهم ولا قوة في أيديهم ، بل
لنقارع بها الأبطال والأكفاء في ميادين الحروب ومواقف النزال
إني لأعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب
الفضيلة ، وإن هذه البائسة المسكينه التي تحتقرونها وتردونها لم
تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليه بقدمها . بل هكذا قدر لها أن
انبت في هذا المنبت القدر الوبي ، فوبئت وقذرت وليس في
ستطاعتها أن تعود الى العدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقاً

جديداً في جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها
وما هي جريمتها ، وأى حيلة لها في هذا المصير الذي ساقها القدر اليه ؟
انما الاتم على الذين يقتربون الذنوب وهم يعلمون مكانها من
الرديلة ومكان أنفسهم من اقترافها ويحولون زمام حياتهم بأيديهم
من طريق الخير الى طريق الشر إثارة لها واقتنائاً بها ، أولئك
هم الآثمون المذنبون الذين يحذر بنا أن نقسو عليهم ونشتد
في مؤاخذتهم ، أما الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم في شأن
أنفسهم ولا حيلة فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعقبتنا ولومنا ،
فإن وجدنا السبيل إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة
الشقاء التي هووا فيها فذاك ، ألا فلندعهم وشأنهم تذهب بهم
المقادير حيث شاءت من مذاهبها ، ولا نردم بكبريائنا واستطالتنا
بؤساً على بؤسهم ، وشقاء على شقائهم

إننا ما أصبنا بما أصبنا به من هذه النكبة الشعواء والداھية
الدهياء التي نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ عنا الا
من ناحية كبريائنا وخيلائنا واعتدادنا بأنفسنا في جميع شؤوننا
وأعمالنا ، واحتقار غنينا لفقيرنا ، وقويننا لضعيفنا ، وسيدنا لمسودنا ،
فسلط الله علينا ذلك العدو القاهر الذي لا يعتمد في جميع شؤونه
ومواقفه إلا على قوته وأيده ، لاننا لم نعتمد في يوم من أيام حياتنا

في جميع صلواتنا وعلائقنا إلا على قوتنا وأيدنا ، والجراء من جذس
العمل ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون
فاصفر وجهه بازليد واربدت شفتاها وكأنما خيل اليها انه
يامزها ويزننها ويشير في حديثه الى ماضيها القديم وحوادث
صباها السالفة فصمتت ولم تقل شيئاً إلا انها انتحت ناحية
وأخذت تبكي وتنتحب ، والدموع هي السلاح الوحيد الذي
تعتمد عليه المرأة في جميع شؤونها وعلائقها ، فعظم الامر على
برانكو مير وأكبر أن يخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا الخطاب
الجافي الغليظ فأنجى عليه باللائمة الشديدة وقال له : انك لم تسيء الى
نفسك في تنزلك الى حماة هذه النورية السافطة واهتمامك بشأنها
بقدر ما أسأت الى أهلك في مجابهة زوجته ومغايطتها وسوء الرد
عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ، ولولا هذه الرايات الحمر التي
ألقيتها اليوم تحت قدمي بأهلتي البيضاء لما اغتفرت لك هذه
الجريمة التي اجترمتها ، فاذهب شأنك ولا تعد الى مثلها
وكذلك تم لقسطنطين ما كان يريد من إنقاذ تلك الفتاة
المسكينة من يد الموت بعد ما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها
الى الجناح الذي يسكنه من القاعة وجلس اليها يحادثها في شأنها
وشأن ماضيها ويسائلها عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها فلم ير

بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة لا تعرف لها وطنًا ولا بيئة ولا
تدين بدين من الأديان ولا مذهب من المذاهب ولا تفهم من
شؤون حياتها إلا أنها فرد مبهم من أفراد هذا المجتمع المساج
المضطرب ، تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره ، لا تعرف إلا مال ولا
تفكر في المستقبل ، ولا تحفل بالماضي ، ولا يتسع عقلها لأكثر
من الساعة التي تعيش فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال ، ولا
تفرح إلا كما يفرح المجانين ، قد صفت نفسها من كل شائبة من
شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقد ولا تغضب ولا تكره ولا
تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ولا تشغل ذهنها بترتيب الصور
والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ، فأصبح ينظر إليها نظراً
الأب الرحيم إلى طفله اللاعب بين يديه ، وأصبحت تجلس تحت
قدميه جلسة الكلب المخلص تحت قدمي سيده ، لا تحذره حتى
يحدثها ، ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديها ، وكان يقول في نفسه
كلما نظر إليها وإلى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته :
أهكذا قضى على الإنسان في هذه الحياة ألا تخلص نفسه من
شوائب الرذيلة والشر حتى يسلب عقله وادراكه قبل ذلك ، وألا
يمنح مقداراً من الصدق والشرف حتى يحرم في مقابله مقداراً
من الفطنة والذكاء ، فليت شعري هل عجزت الطبيعة عن أن

تَجْمَعُ للمرءِ بينَ هاتينِ المزيّتينِ ، مزيةِ العقلِ الذي يعيشُ بهِ ،
والخلقِ الذي يتحلّى بحليّتهِ ، أو أنّ اللهَ في ذلكِ حكمةٌ لا نعلمها
ولا ندركُ كنهها ؟

وكأنما كان يشعر في نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة
المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال
الغريب الذي عجرت يد الطبيعة عن صياغته ، فبدأ يهتم بشأنها
اهتماماً عظيماً ، ويتبسّط معها في الحديث تبسّط النظر مع نظيره
ذاهباً معها في كل واد من أوديته مَعْنِيّاً كل العناية بتثقيفها وتعليمها
وإثارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذي
كان يعلمه به معلمه في المدرسة ، فأرشدّها الى وجود الله لا من
طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية ، بل من طريق الآثار
والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها
وابداع خالقها ، وأرشدّها الى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها
لا من طريق الترغيب في الثواب والتخويف من العقاب ، ليكون
أدبها أدب نفس لا أدب درس ولتتخرج الفضيلة بنفسها امتزاجاً
لا تزعه عواصف اليأس ولا عوامل الرجاء ، فكانت تعجب لحديثه
ومراميه عجباً شديداً ، وتجد فيه من المذة والغبلة ما لا تذكر أنها
شعرت بمثله في حياتها في حديث أيّ متحدث يتحدث إليها ،

وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومشافتها والنزول على حكمها في ما يعرضها ويرضيها ، فقالت له مرة وهي تحاوره : انك تحدثني يا مولاي كأنك لا تعرف من أنا ، قال إني أعرفك كما تعرفين نفسك وأعرف انك أختي في الانسانية وهي الأم الرؤوم التي لا يستطيع أحد من بنينا أن يمت إليها بأكثر مما يمت به اخوته ، وما للأخت ملجأ تلجأ إليه في شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها ، قالت ولكنك تعلم أي فتاة مذنبة ساقطة ، قال كل الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها ، قالت : لم أر في حياتي مذنبات حتى اليوم عفيفات قطع ابتسم في وجهي ، قال ذلك لان الناس مرءون مخادعون يزعمون لا أنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنب ويذدرونه لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون ، بل ليوهمو الناس انهم غير مذنبين ، ولو انهم تكشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا وتهادنوا ولما أخذ أحد منهم أحداً بذنب ولا جريرة وكذلك أصبحت ميلنزا الغراء الوحيد لقسطنطين عن همومه

وآلامه ، فقد وجد بين جنبها تلك النفس الطاهرة البريئة التي
طلما نشدها قبل اليوم فاضلها ، وتطلبها فاعياها طلابها ، ووجد في
صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذي بكاه وندبه ندباً شديداً
يوم ماتت أمه ويوم تولى عنه حنان أبيه ، وكان يتحدث معها في
كل شأن من شؤون الحياة دقةً وجليلها ويفضي إليها بكل خبيثة
من خبايا نفسه إلا ذلك الهم العظيم الذي كان يعالجه في أطواء
نفسه وأعماقها ويكابد منه ما يفتاق مضجعه ويصل ليله بنهاره ،
وهو استحالته حال أبيه وانتقاض قلبه عليه وانقياده ذلك الانقياد
الاعمى الى تلك الفتاة اليونانية الدخيلة التي لا يعنيه من شأنه
سوى أن تتخذ من عاتقه سائماً تصعد عليها إلى سماء المجد ثم
لا تبالى بعد ذلك أن تدفعه بقدمها بعد بلوع غايتها فيسقط في
الهوة التي قدر له أن يهوى فيها ، إلا أن ميلنزا الذكية بفطرتها
المتفانية في حبها وإخلاصها لم يكن يفوتها أن ترى بعين فطنتها
وذكائها في تلك الزاوية المظلمة من زوايا قلبه ذلك الهم الخفي
المكتمن ، وكان يساعدها على فهمه واستكناهه تلك الاحاديث
التي كانت تسمعها تدور من حين إلى حين بين القائد وزوجته
عند ما كانا يمران بها أو يقفان على مقربة منها وهي جالسة تحت
بعض الجدران أو في ظلال بعض الاشجار لا يحفلان بها ولا

يلقيان لها بالا ، فقد سمعته مرة يقول لها « إني أحبك يا بازيليد
حب المرء نفسه التي بين جنبيه ، ولقد عشت حياتي كلها قانعاً
من العيش بتلك اللذة الوحشية الدموية ، لذة القتل والاسر
وسفك الدماء وتقطيع الاوصال ، حتى رأيتك تتطلعين الى
تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك فأحبته من أجلك
وأصبحت لا أقترح على الدهر أمراً سوى أن أرى تلك الجبهة
اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع البديع ، فلانأسى
منه ولا تقنطي ، واعلمي اني سأتيك به وان كان كوكباً نائياً في
آفاق السماء ، أو درّة راسبة في أعماق البحار » وسمعتها مرة تقول
له « ما أجمل وجهك يا برانكومير ، وما أبديع ضيائه ولاأءهوما
أنصع هذه الشعور البيضاء التي تدور به دورة الهالة بالقمر ، وما
أجمل تاج الملك يوم يوضع على رأسك فتنحد الاضواء الثلاثة
جميعها ويموج بعضها في بعض فتراهي — في أجمل شكل وأبديع
منظر ، إنك ستكون ملكاً بامولاي وستكون أعظم ملوك العالم
شأناً وأرفعهم مقاماً وستجتمع فوق عرشك الرفيع الالمجاد الثلاثة
مجد النسب ، ومجد الحروب ، ومجد الملك ، ولقد ألقى السكاهن في نفسي
كلمته التي تنبأ لي بها وما هو بالكاذب ولا المجنون ، فكن علي
ثقة من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا

خطوة واحدة فاخطها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التي تريد » وسمعتها مرة تقون له « انني لا أخاف على أملنا أخذاً من الناس سوى ولدك قسطنطين ، فقد علمت أمس من بعض أصدقائه انه ينكر عليك كل الانكار هذا المسعى الذي تسعاه اليوم ، الا سمعت أنه يشبط الناس عنك ويزحزحهم من حولك ويليقي في قلوبهم اليأس من نجاحك ، ولقد حدثني عنه بعض الناس أن ذا كراً ذكر له مرة ولاية العهد مهيناً اياه بها ، فغضب واحتد وتغيظ عليه تغيظاً شديداً وقال له : انني جندي ولدت في ساحة القتال وسأموت فيها » وأن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أمير مطاع في الجيش والشعب كولدك لا بد أن تترك أثراً سيئاً في نفوس الناس جميعاً وتفت في عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سبباً في القضاء على آمالك وأمانيك ، ولا أعلم لخطته هذه سبباً سوى ذلك البغض الشديد الذي لا يزال يضره الى في أعماق قلبه منذ دخلت بيتكم حتى اليوم وما أذنت اليه ذنباً ولا أسلفت عنده جريرة فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يراني جالسة على العرش بجانبك استظل بظل نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك وسلطانك ، فقاطعها الامير وقال لها : لا تصدقي يا بازييد شيئاً مما يقولون . فقسطنطين أبر

بى وأعظم حباً وإخلاصاً من أن يعترض سبيل رغبة يعلم أنى
أرغبها وأصبو إليها، ولا أعلم أنه يفيضك أو يضر لك فى نفسه
شيئاً من الشر الذى تذكرين، بل هو يحترمك ويحلك اجلاله
إلى ويحب لك من الخير ما يجب لى ولنفسه ولا يؤثر على
مرضاتنا شيئاً»

وكذلك ظلت ميلترا تسمع أمثال هذه الاحاديث فتعلم منها
ما يدور بنفسى هذين الشخصين الطامعين وتعلم أن هذا الذى
يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذى يعالجه قسطنطين
فى أعماق قلبه ويكبده، ولكن لم يخطر ببالها مرة أن تنقل إليه
شيئاً مما سمعته اعظاماً له واجلالاً وضناً بنفسها وبأدبها أن تفتحه
فى أمر لم يشأ هو أن يفتحها فيه

﴿ التاج ﴾

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر فى انتخاب الملك
الجديد فنظرت فى المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى
فأتت أن العدو لا يزال على الابواب وأنه لا يزال قوى الشكيمة
صعب المراس وأن الوطن يحتاج إلى الامير برانكو ميرقائداً أكثر
مما يحتاج إليه ملكاً وأن الاسقف « أتين » أعظم رجال المملكة

عقلا وأسماء إدراكا وأقوام سلطانا على نفوس الجيش والشعب
فقررت تقليده ملك البلقان وأعلنت قرارها في جميع أنحاء المملكة
فقابله الشعب بالرضا والتسليم ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من
أشباع القائد وأنصاره

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام فحضرها جميع وجوه المملكة
وعيونها ورجال السياسة والجيش ماعدا القائد برانكومير ، فلم
يأخذه الملك بهذه الهنة بل اعتبره وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم
يقنع في أمره بذلك حتى أعلن عزمه على السفر الى الحدود لزيارته
في قلعته ، وما لبث أن سافر في جمع من حاشيته وجنده ، وكانت
رساله قد تقدمته لانباء القائد بمقدمه فامتعض لذلك وتحرص وكادت
تحذنه نفسه أن يسافر الى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند
قدومه لولا أن أشارت عليه بازليد بغير هذا الرأي فأذعن لها
راغما ونزل لا تنتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحياه الملك حين
رآه تحية الاجلال والاعظام وعانقه عناقا طويلا وقال له : أما الملك
الجالس على عرش البلقان وصاحب الامر والنهي فيه فهو أنت
يا برانكومير ، أما أنا فاني خادمك الامين المخلص القائم بتنفيذ
أوامرك وتجييش الجيوش لك وامدادك بما تحتاج اليه من العدة
والمؤونة ، واعلم ان الامة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت

أن أحداً أجدر بهما منك ، وليكنها صننت بك أنت ، وأنت حصنها المنيع ودرعها الواقية وبطائها الذى لا يغنى غناؤه فى موقفه أحد — أن يشغلك شاغل الملك عن شأنك الذى أنت فيه والذى نصبت له نفسك طول حياتك ، فأثرت بقاءك فى هذه القلعة تحميها وتحمي المملكة بحمايتها : فان لم تكن الملك الجالس على عرش « فيدين » فأنت الملك المتبوى عرش الافئدة والقلوب ، واعلم اننى ماقدمت اليك مقدمي هذا لاعتذر عندك من ذنب أذنبته اليك أو لا توجع لك من كارثة نزلت بك لانى اعلم انك أجل وأرفع من أن تعتبر عبء الملك وهمه نعمة تأسف على فقدها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعوك الله أن يدك بروح من عنده حتى يتم لنا على يدك النصر الذى نرجوه لانفسنا فيا من البلقان أبد الدهر أن تخفق على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح أو يرن فى أجوائه صوت غير صوت الله ثم تقدم نحوه ووضع بدد على رأسه يباركه ويصلى له وبر انكومير يتمز غيظاً وحنقاً وليكنه يتجلد ويستدهسك حتى فرغ الاسقف من شأنه ، فلم يربداً من أن يستقبل حفاوته بمثلها فد اليه يده وهنأه بالملك واعتذر اليه عن تقصيره فى حضور حفلة التتويج فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده هائناً مغتبطاً لا يرى إلا انه

قد أَرْضَاهُ ومَحَا أثر ذلك العتب من نفسه
ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً فشيعة القائد الى ضاحية المدينة
ولبت واقفاً مكانه ساعة ينظر الى ذلك الموكب الفخم العظيم
ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة حتى غاب عن بصره فانقلب الى
قصره نائراً مهتاجاً يصيح ويحار ويهذى هذيان المحومين حتى
بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مشرفة على الجماهير
الغادية والرائحة في طرقها ومذاهبها وأنشأ يحدث نفسه ويقول :
نبأ لك أيها الشعب الخائن الغادر لقد جازيتني شر الجزاء على
عملي وكفرت بنعمتي التي اسديتها اليك ویدی التي اتخذتها
عندك أيام كنت أسهر لثنام وأشقى لتسعد وأقضى ليالى الطوال
سجيناً في قلعي لا أبرحها ولا انتقل منها لأدبر لك أمر الحماية
التي تحميك وتصون أرضك وديارك وأنت لاه لاعب ، هانيء ،
مغتبط يمرح عامتك في منازلهم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ، ويقم
خاصتك حفلات الرقص والغناء في قصورهم وأنديتهم ، فكان جزائي
نذك ان ضننت على بالعرش الذي أنا عماده وملاكه وحامل قوائمه
وعمده ، وآثرت به كاهنا مافوناً لا شأن له في حياته سوى أن يمسح
رءوس الاطفال ويهمهم حول أسرة الموتى ، فبئس ماجررت على
نفسك من الويل في فعلتك التي فعلت ، وبئست الساعة التي

رأيت فيها هذا الرأي الفائل الخطل ، لقد فلتت بيدك سيفك
الذى كان يحميك ويصونك ، وأطفأت جذوة الحماسة فى صدر
قائدك الذى كان يذود عنك وعن عرضك ويحمى أرضك وديارك .
فابتع لك بعد اليوم قائداً يتولى حمايتك وصيانتك . أو فاطلب
الى أسقفك التقى الصالح الذى توجهت ييدك واخترتة بنفسك
لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء

وإنه ليردد فى موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموم الحقد
والشر على العالم بأجمعه اذ دخلت عليه الأميرة باسمه متطلقة تختال
فى حللها وحلاها فأخذت ييده وقالت له أرفق بنفسك يا برانكو مير
واعلم أن نبوة الكاهن لا تكذب ولا تخيب ، وأبشرك انك
ستكوك بعد شهر واحد ملكا على البلقان ، ولا تسألنى كيف يكون
ذلك ، فدهش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلماتها ومانأها
فلم تمكنه من ذلك لانها تهافتت عليه واعتنقته ووضعت على فيه
قبلة شبيهة أطفأت بها جذوة حذته وغضبه ، ثم أفلتت من يده
وعادت أدراجها

﴿ المؤامرة ﴾

اضطجعت بازيليد في سريرها وجلست خادمتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحها وتحديثها حديث تلك الآمال الحسان التي لاتزال تراءى لها في يقظتها وتحلم بها في منامها ، وإنهما كذلك اذ قرع الباب قرعاً خفيفاً فعرفت صوفيا من القسارع وفتحت له فاذا « بانكو » الجاسوس التركي متنكر آفي زى الموسيقىار المسكين ، فدخل وحيا الأميرة تحية الاجلال والاعظام ثم أخذ مقعده الذي كان يقتعده من الغرفة في كل ليلة وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التي كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها اب تلك المرأة ويستهوئها حتى آتمها . فطربت لها طرباً شديداً . ثم دعت خادمتها فأرسلتها في بعض الشؤون . فلما خلاها المكان ألقى الموسيقى قيثارته جانباً وخلع عنه رداء التنكر ثم مشى الى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تم في المسألة يا بازيليد . فقد طال مقامى في هذا البلد وأخشى أن يرتابنى أحد . وليس في استطاعتي أن أبقي هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني

فاعتدلت في جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأميرالية أمس

في المسألة وعرضت عليه مقترحك الذي اقترحتة فأصننى الى
حديثي في مبدأ الامر، ثم لم يلبث أن أكفر وجهه واكتأب
وأبى أن يقبل منى كلمة واحدة في هذا الشأن، وظل يقاطعنى
ويعارضنى معارضة شديدة فلم أشأ أن ألح عليه مخافة أن يرتأب
بى وبمقصدى، وسأستأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من
المعسكر وأرجو أن ينتهى بأذعانه وتسليمه، ولا يفتك ياسيدى
ان من أصعب الامور على رجل شريف عظيم مثل برانكو مير
أن يتحول فى ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته، وأن ينقلب فجأة
من رجل وطنى مخلص يبذل دمه وحياته فى سبيل الدفاع عن وطنه
والذود عنه الى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه
بعرض تافه من أعراض الحياة، فلا بد من مهادنته ومؤانأته
وأخذه بالروية والتؤدة

قال ليس فى الامر خيانة ولا دناءة، ولا بيع وطن ولا أمة،
فانا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مسترقين، بل أصدقاء
مخلصين، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا فى افتتاح بلادكم
والتزول بها أن نصادركم فى حريتكم الدينية والاجتماعية، أو
نسلب أموالكم وتنهك أعراضكم، أو نغلق أبواب كنائسكم
ومعابدكم، أو ننخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم، إلا لنكون

أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية والسير بكم
في طريق المدنية الأدبية والسياسية ، حتى تبلغوا الذروة العليا
منهما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجريين الذين
يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم
ومطامعهم ، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الاوفياء ، من حيث
تظنون اننا أعداؤكم وخصومكم

فابتسمت بازليد ابتسامة الهزء والسخرية ونظرت اليه
نظرة عتب وتأنيب وقالت له : ان برانكومير يا صديقي ليس
موجوداً معنا لنخدعه بأمثال هذه الاساليب الكاذبة ، أما أنا
فاني لا أنخدع بها ولا أغتر ، لاني أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم
الساسة الكاذبون جميعاً أن الفاتحين من عهد آدم الى اليوم ، إلى
أن تبدل الارض غير الارض والسموات لا يفتحون البلاد للبلاد
بل لانفسهم ، ولا يمتلكونها لرفع شأنها واصلاح حالها والاخذ
بيدها في طريق الرقي والكمال كما تقول . بل لامتصاص دمها
وأكل لحما وعرق عظمها وقتل جميع مواد الحياة فيها ، والامة
ان لم تتول اصلاح شأنها بنفسها لاتصلحها أمة أخرى معها
حسن نيتها ونبل مقصدها ، والاصلاح ان لم ينبت في تربة الامة
نفسها ويزهر في جوها ويألف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم

لا ينفعها ولا يجدى عليها ، ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل
من منرسها الى مغرس آخر ، فهي تزهر فيه أياماً فلائلاً ثم لا تلبث
أن تذبل وتذوى

فإن وجد بين أولئك الطامعين من يذهب في سياسته
الاستعمارية مذهب الإصلاح والتشديد ، فكما يسمن صاحب
الشاة شأنه ليذبجها ويأكلها ، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته
بالرى والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها

أما الحرية الدينية التي تريدون أن تمنوها علينا فما أهونها
عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضاً ، ولا تقف لكم في سبيل
مذامع ، وقد يمتاً كان الفاتحون يخذعون الشعوب الجاهلة بآرضائها
في شؤون دينها ، ليسلبوها شؤون دنياها ، ويوجهون نظرها
الى الشؤون الروحية الحالية ، ليقطعوا عليها طريق النظر
في الشؤون المادية الحيوية ، فكان مثلهم في ذلك مثل الاله الذي
يدس لمن يريد سرقة مادة مخدرة في طعامه لانكلفه الاثنا كسيراً
ليستولي على الجمل الكثير من دنائره ودراهمه ، على أن القوة
الدينية في الامة أثر من آثار القوة السياسية ، فاذا ضعف أمر
الامة في سياستها ، ضعف أمرها مع الايام في دينها ولا بقاء
لدين من الاديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته

الا كما يبق الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الارض عدو سواكم ، فاحمونا من أنفسكم قبل أن نحملونا من غيركم ، وهب أن المجريين أعداؤنا كما تقولون ، فهل هم يطعمون في شيء أكثر مما تطعمون فيه أنتم ؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذي يحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأي أن يهب الانسان متاعه رجلا مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر ؟ او ان يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه ؟

انكم ما جئتم هنا لتحملونا من أعدائنا بل لتحتّموا بنا من أعدائكم ، لانكم انما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف المجريين عليكم وعدوانهم على أرضكم هذه هي الحقيقة التي لا ريب فيها ، فان كنت تريد بما قلته أن تعلمني ما لفته لذلك الرجل الذي اتفقنا على خداعه وختله فاني أحفظ كثيراً من أمثال هذه الرقى والتعاويد ، فلا حاجة بي الى سماعها منك ، فلنعمل في المسألة معاً متكشفين متصارحين ، ولتعلم ان الذي أسعى لاعطائك إياه وتسليمك زمامه انما هو

الوطن بأجمعه ، أرضه وسماؤه ، وبره وبحره ، وخيراته وشراته ،
وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذي أنقاضا كه في سبيل ذلك
ثمن بخس ضئيل لا يزيد على كرسى من الخشب مموه بالذهب
يسميه الجهلاء عرشاً وهو في البلد المغلوب على أمره المساوب
حريته واستقلاله سجين ضيق لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما
استطاع الجالس عليه أن يهدأ فيه ساعة واحدة . فأما أبيعك هذا
الوطن الثمين وأخذ منك ذلك الكرسي الحقيق ، وأنا عالة قيمة
مأعطى وقيمة ما آخذ ، فلا تحسب أنك تخدعنى أو تدهننى في هذه
الصفقة ، وأقسم لك بشرفى وشرف « بينظية » لو كان هذا الوطن
وطنى وكانت تربته مدفن آبائى وأجدادى لما بعثك ذرة واحدة
من ترابه بجميع عروش الأرض وتيجانها

فاصفر الجالسوس واربد وجهه وقال : اننا ما اجتمعنا هنا لتفسير
معنى الفتوح والاستعمار ، بل لأعرض على زوجك هذا العهد
السلطاني بتقليده ملك البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكن من
إخلاء التخوم من حراسها وسهل لجيشنا سبيل اجتيازها ، فإن
قبل فذاك ، أو لا ، عدت بعد ثلاثة أيام الى مركز الجيش ورفعت
الأمر الى سلطانى وقائدى ، وعادت الحرب الى شأنها الأول أو
أشد ، ولا يعلم الا الله متى تنتهى وماذا تكون عاقبتها

فتناولت منه المهد وقالت له سنلتقي بعد ليلتين أو ثلاث ،
وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق
فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض
الاناشيد الدينية ، وماهى اللحظة حتى عادت الوصيفة وكان
الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف

﴿ الأمل ﴾

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون
بلا أمل ولا رجاء

إنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها في أرض
قاحلة جدهاء لا تنبت لهم راحة ولا سعادة ، ويسهرون ليلاتهم وهم
يعتقدون أن ظلماتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد ،
ويطرقون برؤسهم في خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهي أيام
شقاءهم أو تبتدى أيام سعادتهم ، خياتهم كلها شقاء لا فرق بين
أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفكروا متى يرحلون عن
هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها ، فإن كان لابد لنا من
أن نذرف قطرة من دموعنا على شقي في هذه الأرض فلنذرفها
على والد ثكل ولده في ريعان شبابه أحب ما كان إليه ، وألصق

ما كان بقلبه ، من حيث لا أمل له في رجعتة ، ولا رجاء في لقائه ،
أو عاشق علم في ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت
من غيره ، وانها ستسافر اليوم أو غداً إلى وطن ناء لا رجعة لها
منه أبد الدهر ، فوقف أمامها يودعها وداعاً لا يقول لها فيه : إلى
الغد أو إلى الملتقى ، ولا يأخذ عليها فيه عهداً أو ميثاقاً ، بل
يصمت صمتاً تذوب فيه كبده القريحة ذوباً ، حتى إذا غابت
عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجها وهو يعلم أن لانصيب
له في العيش بعد اليوم ، وأن هذا آخر عهده بالحياة ، أو فتاة بئسة
مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عطاء الحياة
المدائن بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود اليه في سمائه ،
وليس من شأن مثله أن يهبط إليها في أرضها ، فهي تبكيه ولا
يشعر ببكائها ، وتهتف باسمه ليلاً ونهارها ولا يسمع ندائها ، ولا
يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها

كذلك كان شأن مليترا فانها أحبت سيدها حب العابد
آلهه المعبود ، وافتنت به افتتاناً كانت تحسبه في مبدأ أمرها
عاطفة ولا ، وإخلاص فاذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن
أثني لها وهي الفتاة الثورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطعمها
إلى ذلك الكوكب النائي في سمائه ، أو أن تمت إليه بسبب

من تلك الاسباب التي يمت بها الناس بعضهم الى بعض ، فكانت
وهي أقرب الناس اليه أبعد الناس عنه وأنهم من مكانه ، لا تستطيع
أن تتجاوز في موقفها معه منزلة الخادم من المخدم ، والسيد من
السود ، والصنيعة من صاحب النعمة

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياء وخجلا خوفها أن
يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن تعثر يوماً من الايام بتلك
اللوعة المتأججة في صدرها فيتهمها في عقلها ويسخرينه وبين نفسه
بتصوراتها وآمالها ، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت عليها حتى
لا يرى في عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر ، وتهرب من الخلوة
به جهدها حتى لا يرتاب في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها
وذهول عقلها وجليجة لسانها ، أي انها كانت محرومة كل شيء ،
حتى تلك اللذة الضئيلة التي يتمتع بها أقل المحبين حظاً ، وأخيبتهم
في الحب سحماً ، وهي الإفضاء يمكنون صدرها الى ذلك الذي
تحبه وتعبده ، وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة
مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم ، وكان يجد في
بلاقتها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقاؤه وصدق لسانها واخلاص
قلبها ملهاة يتلغى بها عن همومه وأحزانه ، ومتكأً يتكى عليه في
ساعات أعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، فكانت إذا جن

الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست في فراشها تساهر
الكوكب وتطالعها ، وتزفر زفرات حرى موجعة وهى لاتعلم
ماذا تشكو ولم تبكى ، لأنها لاتعرف لها غرضاً ولا غاية ، ولو
استطاعت أن تفهم من شؤون نفسها ما يفهم الناس من شؤون
نفوسهم لعرفت انها إنما تبكى على أن ليس لها فى الحياة كمال للناس
أمل ولا رجاء

هذا هو الحب الطاهر البرى الذى لا تشوبه الاغراض
والغايات ، ولا تحيط به الريب والشكوك ، والذى طالما نشده
الناس فى كل مكان فاضاوه ، وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ،
وأى سعادة فى الدنيا أعظم من سعادة نفس تجد بين يديها نفساً
طاهرة مخلصه تحبها وتعبد لها ، وتمتزج بها امتزاج الماء بالخمير ،
والأريج بالزهر ؟ ولقد ظفر قسطنطين من تلك الفتاة بهذه النفس
المخلصة المتعبدة التى تحزن لحزنه ، وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه
وترضى لرضاه ، ولا تعرف لها وجوداً منفصلاً عن وجوده ، ولا
حياة مستقلة عن حياته ، فكانت منه بمنزلة المرأة من الوجه ،
تقطب إذا قطب ، وتبتسم إذا ابتسم ، وتطير فرحاً وسروراً
بانتصاراته ، وتذوب كمداً وحزناً لآلامه وأحزانه ، وتحب أباه
حبه إياه وتنفر من زوج أبيه نفوره منها ، وهو وان لم يكن يفتحها

في شأن من شؤونه الخاصة ولا يفضي إليها بسر من أسرار بيته
وعلائق بعض أفراده ببعض ، إلا أنها كانت تشعر أن تلك المرأة
اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد والولد بل على الأمة بأسرها
وكان شعورها هذا يقودها الى مراقبتها وملاحقتها في كل مكان
وترصد حركاتها وسكناتها عليها تهجم منها على ذلك السر الهائل
الذي تتوهمه توهماً ولا تعرفه ، فنكشفه وتمزق عنه الستار ، حتى
واتاها القدر يوماً من الايام فعثرت به

﴿ السر ﴾

رجع قسطنطين من بعض غزاوته فدخل على مليتزا فرآها
مطرقة واجمة فلم ياق لها بالاً وخلع رداءه ثم جلس على كرسية
جلسة الراحة والسكون ، وإنه لسكذلك إذ طرق مسمعه صوت
تلك القيثارة البديعة التي كان يسمعها من حين الى حين تصدح
في قصر أبيه فطرب لها طرباً شديداً ، وافتقر ثغره بعد عبوسه ،
ثم نظر الى مليتزا وهي جالسة تحت قدميه فرآها مصفرة مغبرة
الوجه ذاهلة كان نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها ، فعجب
لامرها وقال لها : ألا تطربين منى يا مليتزا لهذه النفثات الشجية
البديعة ؟ فرفعت رأسها اليه وكأن دمة لامة تترقرق في عينيها

وقالت له لا يامولاي ، فدهش لقولها وقال ولم ؟ قالت لاني
لا أحبها ، قال ولم لا تحبينها ؟ قالت لاني لا أحب صاحبها ، قال
وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذي يختلف
الى الأميرة من حين الى حين ليُسمعها أناشيد قومها وأغانيهم
فتعود عليه ببعض نوالها ؟ قالت انه ليس بسائل يسيدي ولا
مسكين ، بل هو الضابط العظيم ابراهيم بك أحد قواد الجيش
التركي ، فانتفض قسطنطين مذعوراً واستوى في مكانه جالساً
وقال ماذا تقولين ؟ قالت اني كنت مخدوعة به قبل اليوم حتى
رأيت ليلة أمس واقفاً تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة
يصلي صلاة المسامين مطرقاً خاشعاً مستقبلاً قبلتهم فارتبت في
أمره ثم دنوت منه وأنعمت النظر في وجهه من خلال بعض
الأغصان من حيث لا يشمر بما كانى فعرفته وذكرت انه ذلك البطل
العظيم الذي كنت أراه في معسكر الجيش التركي لا يزال مرافقاً
للقائد الكبير يسير في ركابه حيث سار ويتنقل معه في غداواته
وروحاته ، وان غابت عني معرفته فلن أعيب عني معرفة تلك الشجرة
الهلالية الواضحة في جبينه وذلك الخال الأسود المرسم تحت عينه
اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغفات الشجية التي يغنيها الآن ...
وهنا توقفت عن الكلام واضطربت وكأن كلمة حائرة تحتاج

بين شفتيها ، فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها ؛ فأطارت
هنيئة ثم رفعت رأسها فاذا دمة تتحدر على خدها واستمرت في
حديثها تقول : نعم اننى أعرفه من تلك النغمات التى كان يدعونى
الى الرقص عليها فى خيمته فى المعسكر وهو جالس بين صحبه
وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه يغنيهم ويطربهم فأرقص
أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادى يتمزق لوعةً وأسى لأهين
ولا أفتر ولا أستعفى ولا أعتذر مخافة أن يرى سيدى الجندى ذلك
منى فيعاقبنى ، فقد كان يحاسبنى على الضعف والعجز والحياء والحجل
والتلوم والاحتشام محاسبة القاضى المجرمين على الذنوب والآثام ،
فاعذرنى ياسيدى ان بكيت لحظة بين يديك ، فانى وان كنت
وُلدت فى مهد الشقاء ونشأت فى حجر البرؤوس والآلام فقد
كانت تلك الأيام التى قضيتها فى ذلك المعسكر أو فى ثورة السقوط
والعار أشقى أيامى وأعظمها شدة وبؤساً ، لا أذكرها الا بكيت
لذكرها ، وأسببت ردائى على وجهى حياء منها وخجلاً
على اننى أحمد الله اليك فقد بسطت الى يد رحمتك
واحسانك واستنقذتنى من مخالب ذلك الشقاء أيا س ما كنت
من الخلاص منه ، أحسن الله اليك ، وهون عليك
همومك وآلامك

وكانت تتكلم وقسطنطين لاهٍ عنها بقصة ذلك الجاسوس لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ثم التفت اليها وقال لها اذن هو جاسوس متنكر ، قالت ذلك ما أعتقده يا مولاي ولا أرتاب فيه ، فظل يدور في الغرفة دورة الهائم المختبل لا يهدأ ولا يترث وظل على ذلك ساعة ثم انقضَّ بغتةً على رداءه فاخذه فخرج من الغرفة مسرعاً فادر كخته ميلنزا وتعلقت باطراف ثوبه وقالت له أين تريد يا مولاي؟ قال اريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره الى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت ان القيثارة قد انقطع صوتها ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله فدعه وشأنه ، قال لا بد لي من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعود الى هذا المكان مرة أخرى ، قالت أضرع اليك ياسيدي أن تملك نفسك وأن تهدي لحظة واحدة حتى أتمكن لك بقية حديثي ، فجمد في مكانه وقال لها ماذا عندك بعد ذلك؟ قالت ان كنت تريد أن ترفع أمر الرجل الى أبيك ليعرف حقيقة فاعلم انه يعرفه حق المعرفة بل هو أعلم به مني ومنك ، فثار ثأثره وصرخ في وجهها قائلاً ماذا تتواین أيتها الفتاة؟ وجر دسيغه من غمده وأهوى به عليها ليقتلها ، فاستخذت له ومدت اليه عنقها وقالت اضرب يا مولاي فدمي حلال لك ، وان شئت فاستمع متى كلمة واحدة قبل أن تفعل ، فان

شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول ، فحمد السيف في يده وظل
شاخصاً اليها ينتظر كلمتها فقالت : نعم قد تم الاتفاق بين أليك
وزوجته وذلك الجاسوس التركي على أن يخلى أبوك تخوم المملكة
من حراسها هذه الليلة لتتمكن الجيوش التركية من اجتيازها ،
فان فعل أصبح في الغد سيد البلقان ومليكها : قال ومن أين لك
علم ذلك ؟ قالت قد سمعت الحديث الذي دار بينهم في هذا
الشأن ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرءونها ويتداولونها وما
أحسبها الا وثيقة العهد الذي تعاهدوا عليه ، فان كنت لاتزال
في ريب من ذلك فدونك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها
برفق وهدوء وضع أذنك على خصاص الباب المغلق بينهما كما
صنعت أنا منذ ساعة تسمع ما يتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك
فشعر قسطنطين ان الأرض انفضاء تدور به ، وأن الشمس
قد لبست قناعها الاسود فما يرى شعاعاً من أشعتها ، وان فرائصه
ترتعد وتضطرب كما تكاد تحمله ، فراجع الى جدار قائم وراءه فأسند
ظهره اليه حتى هدا قليلاً ثم مشى يتجامل على نفسه حتى دخل الغرفة
التي وصفتها له ميلترا ومشى الى الباب الموصدين الغرفتين ووقف
بجانبه يتسمع فلم يسمع شيئاً حتى ظن أن الغرفة خالية ثم سمع
صوت أبيه فأنابه وتجمع للاصغاء فاذا هو يقول لزوجته بصوت

خافت منهج : هل سافر الرجل ؟ قالت نعم ياسيدي وما أحسب
الا انه تجاوز أطراف التخوم الساعة فان جواده أفره الجياد
وأسرعها ، فصمت ولم يقل شيئاً فذنت منه وقالت له بنعمة حلوة
ساحرة ، ما هذا الاصفرار الذى يكسو وجهك يامبشيل ؟ وما
هذه الكتابة السوداء التى تتدجى فى عينيك ؟ فهل أنت نادم
على ما كان ؟ قال لا ولكننى أخشى الفشل ، قالت لا أعرف
للفشل باباً يمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائد الجيش
وصاحب الأمر والنهى فيه ، فان كان كل ما يغنيك من الأمر
الا تظهر يدك فى هذا العمل فقم الساعة واللبس ثياب أحد الحراس
واذهب الى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الراية الاولى
وارقبه حتى تأتى ساعة انصرافه واستبداله فاظهر له كأنك
الحارس الذى يخلفه فى مكانه واهتمف له بكلمة السر التى بثتها
الليلة بين جنودك ، وحراس المداولة كثير لا يكاد يعرف بعضهم
بعضاً ، فاذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من
أمرك شيئاً ، حتى اذا رأيت الجيش التركى مقبلاً فى منتصف الليل
وعلمت أنه قد أشرف على التخوم وملك رأس الطريق الى
« فيدين » عدت أدراجك الى القصر متنكراً كما ذهبت لم يشعر
بك أحد فى ذهابك أو ايابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه المنازلة

مفاجأة لانملك معها للأمر دفعا ولا رداً

فطارت نفس قسطنطين شعاعاً عند سماع هذه الكلمات
وكاد يصرخ صرخة عظمى يرتج بها القصر وأرجاؤه لولا أنه
طمع في أن يسمع من أييه كلمة شرف وإباء تهدم صرح تلك
الحياة الذي تبنيه يد زوجته ، فأرهف أذنيه ليسمع جوابه ،
فسمعه يقول بنغمة الفارح المقتبط بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم
هذا هو الرأي السديد ، ولقد أمنت الآن كل شيء : فأتيتني
بلباس الحارس فقد عزمت ولا مرد لعزى ، فتهافتت على عنقه
وقبلته قبله طويلاً رن صوتها في أرجاء الغرفة ثم ذهبت لشأنها
فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه واكفهر
وجهه وتداركت ضربات قلبه وحاول أن يصيح نخافه صوته
فسقط مغشياً عليه ولكن بين ذراعى ميلترا لأنها كانت واقفة
وراءه ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ، حتى اذا هوى تلقته
بين ذراعيها وقادته الى غرفتها

﴿ الجريمة ﴾

جثم الليل في مجثمه ونشر أجنحته السوداء على السكون باجمعه
فجمع تحت ظلالها الاحياء جميعاً من بشر وحيوان . ولم يبق ساهراً

وسط هذا السكون الخيم الاعينا القائد برانكو مير في شعب
 تراجان يديرهما ههنا وههنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى وراءه
 ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله ، ويقلبها أحيانا في
 صفحة السماء فيرى عيون النجم محدقة فيه فيخيل اليه انها عيون
 الله ناظرة اليه نظرات الوعيد والتهديد ، وكأن صائحا يصيح به
 من جوانب الملاء الأعلى « اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن واكتم
 عملك عن عيون الناس جميعا فاني ناظر اليك ومسجل عليك هذه
 الخيانة العظمي التي تجنيها على وطنك وقومك » فيتضاءل ويتصاغر
 ويعمر بخاطره قول أمه له في عهد طفولته فيما كانت تمليه عليه من
 آداب الحكماء وأقوالهم (إن كواكب السماء ونجومها تشهد بين
 يدي الله على جميع جرائم البشر التي ليس لها شهود) ، ثم لا
 تلبث أن تسرى عن نفسه ويذهب به خياله إلى الملك وعرشه ،
 وتاجه وصولجانه ، وعزه ومجده ، ثم يلتقي نظرة عامة على الجبال
 المحيطة به ، والسهول المنبسطة من حوله ، والانهار المائجة بأشعة
 النجوم ولائها ، فيقول . غدا تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتي
 وأهلها خدمني وحشمي ، يأترون بأمرى ، ويدعون لقوتي
 وسلطاني ، وغدا يتلأأ التاج على جبين بازيليد فتصبح أسعد نساء
 العالم جماء وأصبح بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يخيل اليه كانه يرى

بازيليد ماثلة بين يديه تنظر اليه نظراتها الساحرة الفاتنة فيمد
ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلاً

اننى لا أزال على العهد الذى عاهدتك عليه مذ فارقتك حتى
الساعة ، لم أندم ولم أتردد ، ولا مر لي بخاطر أن أحفل بشئ في
العالم سوى أن أنيلك البغية التى تبتغيها

أن القيلة التى وضعتها على شفتى منذ ساعة قد أثلجت صدرى
وسكنت جميع مخاوفي ووساوسى ، فانا أقدم على الجريمة إقدام
المهادى ، المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أفكر فى نتائجها ، بل
لا أشعر انها جريمة يخفق لها قلبي خفقة الاسف والندم

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ولا بدلى من أن أبر بقسمي
ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسى منك - وأنت الحياة
التي لا حياة لي بدونها - لاستحييتك أن أحنث فى قسمي أو أن
أخيس بعهدي

أقسمت لك أن أخون وطني ، وهاءنذا أخونه كما أردت راضياً
مستسماً لا أندبه ولا أرثي له ، فرضاك هو الوطن كله ، بل هو
الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله ، وليفن العالم بأسره ، فأنت
لى كل شئ ، فيهما

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة

في شعب « تراجان » تحمت القوس الروماني بجانب هضبة عالية
من الخطب أعدت للاحراق انذاراً للجيش بالعدو عند زحفه ،
وكانت الهضبات المحيطة بتلك الراية أو المبعثرة من حولها سوداء ،
قائمة تترأى في ظلمة الليل ووحشته في صور وحوش مخيفة هائلة
فاغرة أفواهها ، أو مقمية على أذنانها ، أو متوثبة للهجوم ، فلا
يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً ، فيسرع الى الانغماس فلا
يفارقه خيالها إلا بعد حين

وما كان الرجل جباناً ولا رعيدياً ، فهو يطل البلقان وحاميه
وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله . ولكنها الجريمة
تنتزع قلب المجرم من بين جنبه وتغشي على عينيه البصيرتين
فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى مالا يراه الناس ويخشى مالا
يخشونه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام والجن والشياطين
والصخور والاحجار بل يخاف جرائمه وآثامه

وإنه كذلك إذ خيل إليه أن أحداها تتحرك من مكانها ،
وتتحلل تحلل الليث المتوثب ، فاستطير قلبه فرقا ورعباً ، وحاول
أن يتهم نظره ويستريب به فلم يستطع ، لأنه ما لبث أن رأى
في ذروة تلك الهضبة رأساً يتحرك وينظر اليه بعينين متقدتين
فصرخ صرخة الكلب الجبان الذي ينبح الشبح المقبل نحوه

لاجرة أواقدا ، بل جبنا وفرقا ، وقال من هناك ، فأنحدر الشبح
اليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت خشن أجش : لا ترتع
يا أبت فأنا ولدك قسطنطين ، فوثب من مكانه وثبة الملسوع وقال
له بصوت متهدج مختنق : ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ومن أنباك
انى فى هذا المكان ؟ قال له وأنت ما الذى جاء بك الى هنا يا أبت ؟
وماذا تريد أن تفعل ؟ إنني أسألك عن مثل ما تسألني عنه ،
فأسقط في يده وطار طائر عقله وأحس بالخوار المقبل إلا أنه
تجلد واستمسك وقال بلهجة الأمر المسيطر : وما سؤالك عن مثل
هذا أيها الفتى الجرىء ؟ وما شأنك بي وبما أفعل ، وكيف فارقت
حصنك فى هذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟ قال لم
أستأذن فى ذلك أحداً غير واجبي ، اننى أعلم كل شئ ، يا أبت ،
واعلم انك ما جئت الى هذا المكان إلا لترتكب أفظع جريمة
يرتكبها انسان فى العالم ، فصاح برانكو ميرو وهو يتميز غيظاً وحنقاً
كذبت أيها الغلام الوقح ، واجترأت على ما لم يجترأ عليه أحد
من قبلك ، عد الآن إلى حصنك ، ولا تبق بعد صدور أمرى
إليك لحظة واحدة ، فان حاولتني فى ذلك فأنت أعلم بما يكون ،
إنك لاتفهم شيئاً من أسرارى وخويصات نفسى . وليس لك
أن تسألني عنها لانك جندى والجندى لا يسأل قائده بل يأتمر

بأمره ولو كان الموت الزؤام ، عد الى مخفرك وتول حراسته
بنفسك ولا تأذن لجفئك بالغمض لحظة واحدة ، وسأحدثك
غداً في هذا الشأن حاجاً طويلاً تعلم منه كل شيء ،

فتضعض قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة وجثا
على ركبتيه بين يديه وقال له : عفواً يا أبت فقد أخطأت في سوء
ظني بك فأنت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن
يضعوك ، وما أحسب كلمتك التي قلتها للاميرة منذ حين في تلك
الخلوة الرهيبة إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها
وملايتها ، أو الهزء والسخرية بها حتى إذا فصلت عنك وخلا
بك مكانك محوت بظهور يدك عن فك تلك القبلة الاثيمة التي
ختمت بها ذلك العهد الاثيم ، ثم قلت لها في نفسك اني قد عاهدت
الله أيتها المرأة البلاء قبل أن أعاهدك على أن أكون أميناً لوطني
ووفياً له فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ولا يمين غير تلك اليمين ،
ثم خفت أن تكون قد استرايت بك أو مرت بخاطرها خلجة
شك في أمرك فأخذت للامر حيلتها من طريق غير طريقك
فجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت
بسواد الجيش التركي مقبلاً اشملت النيران إنذاراً لجيشك بالخطر
الدائم وخيبت آمال أعدائك في ما يكيدن لك ولقومك

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم انه كذلك بلا شك ولا ريب
فأشعل النار الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع ، وتبدد
بلاؤها هذه الظلمات المتكاثفة ، فاني اشعر بسواد مقبل من
بعيد يتقدم شيئاً فشيئاً وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه ،
أنظر يا أبت واخترق بنظرك هذا الفضاء الشاسع ألا ترى
تحت خط الافق أشباحاً تتحرك وتتقدم ؟ إنه ليخيل إلى انها
أعلام الجيوش التركية تخفق في أجوائها ، وربما لا تمضي ساعة
أو بعض ساعة حتى تكون قد وصلت الى هنا .

أسرع بإشعال النار ، أو عد أنت الى قصرك وخذ لنفسك
راحته فيه ودعني أتولى عنك أشغالها ، فالخطر موشك أن يقع
مامن ذلك بد

مالي أراك جامداً يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي يتوك ؟
أشعل النار أو تنح عن طريق لا شعلها ، أشعلها فالوقت أضيق
من التأمل والتفكير

فرفع برانكو مير رأسه ونظر الى ولده نظرة جامدة وقال
له . اذن انت تهمني يا قسطنطين وترتاب بي ، ما اشقاني
وأسوأ حظي ، ولدي وفلذة كبدي ووارث اسمي ولقي تهمني
ويتجسس على ويقف وراء الابواب ينظر من خصاصها لاسمع

ما يدور بيني وبين زوجي في خلوتي : فيا للعار ويا للشقاء ، أيها
الولد العالق المسكين : اذهب لشأنك فاني أريد أن أبقى هنا الليلة
وحدي ، ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن يأمر فيطاع ،
وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره ،
إنني سأبقى هنا وحدي ، وسأشعل النار بنفسى عند ما أريد إشعالها ،
فلا حاجة بي الى مشورتك ومعاونتك ، عد ادراجك الى حصنك
ولا تضيف إلى جريمة التجسس على أهلك جريمة معاندته ومخالفة
أمره ، واعلم أنك الآن جندي أمام قائده ، لا ولد بين يدي أبيه
فإن قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمته لي ولك
يا أبت ، إن الامر صحيح لا ريب فيه والجريمة على وشك
الوقوع

ثم صمت صمتاً طويلاً لا تطرف له فيه عين ولا تنبث
له جارحة ثم انتفض فجأة وصاح باهجة شديدة صارمة : أبي ! انني
سأبقى هنا

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراني الآن الا أمام
عدو لدود ، لا ولد بار مطيع ، قال لا أبت بل أمام ولد بار مطيع ،
ولولا ذلك ما جشمت نفسي مشقة الحجى ، اليك في هذه الساعة
من الليل ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر المميت ، انني لم

أفعل ذلك من أجل نفسي بل من أجلك ومن أجل شرفك ، إنني
أحبك كما أحب وطني ، وما على وجه الأرض شيء أحب إلي
منكم ، وكما أتمنى له أن يعيش حراً مستقلاً ، أتمنى لك أن تعيش
شريفاً عظيماً ، فإذا ضاع وطني وكان ضياعه على يدك انت فقدت
في ساعة واحدة جميع ما أحب في هذه الحياة ، فارحم ولدك
المسكين الذي لا يزال يضمرك في قلبه حتى الساعة ذلك
الحب القديم الذي تعرفه واستبق له تلك السعادة التي لم يبق
له في الحياة سعادة غيرها ، تنح قليلاً عن طريق وائذن لي أن أصل
إلى هذه الراية لاشعل ناراها فيراها حراس الروابي جميعاً فيشعلوا
نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ، فقد أزفت الساعة
ولم يبق سبيل للأناة والتفكير

ثم اندفع إلى مكان الراية مسرعاً فاعترضه أبوه ووقف في
وجهه وقفة الصخرة العاتية في وجه الريح العاصف وقال له : لا آذن
لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ما تريد الموت الزؤام
فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذريا أبت
فان في هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من
الظالمين ، ويجازي الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما أنت بناج
من عقابه ، ولا مفلت من جزائه ، لقد حدثتني نفسي في تلك

الساعة الهائلة التي سمعتك فيها تؤامر على وطنك وأمتك بأفطع ما تحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أمرك الى الملك أنت وزوجك وأكشف له دخیلة أمر كما فـلم أفعل لاني صننت بك على الموت الدني ، الذي يموت الخائنون المجرمون أمثالك ، وأشفقت على ذلك الشرف العظيم الذي بلغ في علوه مناط السماء الاعلى أن يصبح مهاناً مذللاً تدوسه الاقدام ، وتطؤوه النعال ، وكرهت أن يمر السابـلة من رعاـع الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيبصقوا عليه كأنما يبصقون على قبر الشيطان ، وربما نبشوا عن جثتك تشفياً منك وانتقاماً فأخرجوها من قبرها وأسلموها الى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق اشلاءها وتبعثر عظامها

أشفقت عليك من كل هذا وأشفقت على نفسي أن يراني الناس في طريق فيشيروا الى بأصابعهم ويقولوا هذا هو الوالد السافل الدني ، الذي وشى بأبيه وأررده مورد التهلكة ، فبئس الولد لبئس الوالد ، ولا يلد الخونة المجرمون غير الادنياء الساقطين ، فنهت نفسي وملكت عليها زمامها وقلبي يذوب حزناً ولوعة وقلت لعلي أستطيع أن أندارك الامر من طريق غير تلك الطريق وأن أتمكن في آن واحد من انتقاد أبي وانتقاد وطني من حيث

لأخسر واحداً منهما في سبيل الآخر ، فنجت وقلبي مملوء أملًا ورجاء ،
أما الآن وقد ينست من كل شيء ، فاني أكاد أشعر بالندم
على ضياع تلك الفرصة التي ملكتها ساعة من الزمان فسرحتها
ولم انتفع بها ، وكان صوتاً خفياً يهتف بي من أعماق قلبي : إنك
قد اشفقت على نفسك مرة وعلى ابيك اخرى ولم يخطر ببالك
لحظة واحدة ان تشفق على وطنك وقومك

فلسألك مرة أخرى ياسيدى وربما كانت هي المرة الاخيرة
أن تتنحى عن طريقى فاني قد عزمت عزماً لا مرد له أن أفتح
هذه الزاوية لأضرم ناراها رصنت أم آيت ، سقطت على السماء على
الارض ، أم بقيت في مكانها

فأطرق برانكو مير لحظة ذهبت به فيها الهموم والافكار
كل مذهب ، ثم رفع رأسه فاذا دمة كبيرة تترقق في عينيه ونظر
الى ولده نظرة عتب وتأنيب وقال له : نعم يا بني انك قد اخطأت
خطأ عظيماً إذ اضعت الفرصة العظيمة التي لاحت لك وقد كان
جديراً بك ان تفرصها ولا تسرحها ، وان تلقى في عنق ابيك في
تلك الساعة التي رابك فيها من أمره ما رابك غلا ثقيلاً تقوده به
الى حضرة الملك منهم اياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله
فتمتع نظرك برويته مصلوباً على باب المدينة والجماهير من

حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرتة وأصدقائه، وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم في عملهم

نعم انها فرصة ثمينة جداً أقدمت عليها لترددك وتحريكك، وقد كان جديراً بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في مكانك، فقد عودت نفسي أنني اذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أترىث، وقد عزمت الآن على أن لا أشعل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك بإشعالها، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة فوقف قسطنطين حائراً ملتاعاً يرجع بين اللهب على وطنه الضائع، والاشفاق على آبيه المسكين، لا يستطيع أن يخون وطنه الذي نبت في تربته، وعاش بين أرضه وسمائه، ولا أن يعق أباه الذي أبرزه الى الوجود ووهبه نعمة الحياة التي ينعم بها، فأسند رأسه الى صخرة كانت بجانبه خائراً متضععاً تتوارد في رأسه الخواطر والأفكار، يصارع بعضها بعضاً، ويشتد بعضها في أثر بعض، حتى بلغ منه الاعياء، مبلغه فنظر الى آبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزناً وبأساً وقال

أبرضيك ياميشيل برانكوميير، يابطل البلقان وحاميها، وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نساؤها، أن يملك العدو

علينا هذه البلاد العزيزة الكريمة فيقتل أبناءها ، ويستحل
حرماتها ، وينكس صلبانها ، ويهدم صوامعها ومعابدها ، ويخرس
فيها كل صوت غير صوت الأذان على ذرى المنائر؟ قال نعم
يرضيني ذلك لأنني أحسنت اليها فكفرت بنعمتي وجازتني شر
الجزاء على صنيعي ، قال إن لم تفعل ذلك من أجلها فافعله من
أجل ربك ، قال أي رب تريد ، إنني لأفعل شيئاً من أجله فهو مماليء
مداج لا يجب الاقسوسه وكهانه ، ولا يرى رءوساً تصلح للتيجان
غير رءوسهم الصغيرة الصلحاء ، ولكنني سأترع بالرغم منه ذلك التاج
من ذلك الرأس الذي توجه به وأضعه على رأسي ، قال : ولكنك
تعلم يا أبت أن التاج الذي يتناوله متناوله من يد عدوه ليس بتاج
شريف ، قال ولكنه تاج على كل حال ، قال ألا تخاف أن يثقل
يوماً على رأسك فيهبط الى عنقك ويستحيل الى طوق حديدي
يخنقك ويقضي عليك ؟ قال إنك تهينني يا قسطنطين وتهدني ،
ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التي لا غاية وراءها ، فتجمل قليلاً
ولا تنس انك إنما تخاطب أباك ، قال : عفواً يا أبت وغفراً فلقد
بلغ بي اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ما أقول
ثم دنا منه وأمسك بيده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف
متهافت ويقول :

عد الى نفسك لحظة واحدة يأبت ، وراجع فهرس تاريخك
الشريف ، واذكر تلك الايام المجيدة التي أبلت فيها في الدفاع عن
وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ في صفحاته البيضاء بأقلامه
الذهبية ، وتلك الوقائع الحريية الهائلة التي كنت تستقبل فيها
الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسنة ليلة زفافها ،
وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى ، والنبت
لأشعة الشمس ، ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء
القرى وفتياتها في كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن يغنينك
وبرقصن بين يديك وبرشفن قطرات الدماء من كؤوس
جراحاتك وينثرن الأزهار تحت قدميك وينادينك باسم المخلص
العظيم وخليفة المسيح في الارض

أذكر تلك الاعلام الوطنية التي تحقق على أبواب المدينة
وأسوارها ترنحها طرباً وسروراً عند رؤيتك ، وترامبها على قدميك
كلما مررت بها كأنها تحاول تقبيلها ولثمها ، واخش ان مررت
بها بعد اليوم أن تُشيع بوجهها عنك احتقاراً وازدراء ، وتضم
أطرافها الى نفسها ترفعاً وإباء ، حتى لا تلمس جسمك ، ولا تحقق
فوق رأسك

لاتبع أمتك يأبت بعرض نافه من أعراض الحياة فالتاج

الذى يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ، انما هو
قلنسوة الاعداء

كيف يهنؤك ذلك الملك وانت ترى امتك المسكينه
راسفه فى قيود الذل والاستعباد تبكى وتستصرخ ولا منجد لها
ولا معين ، وتئن فى يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف
ولا من يسمع أنينها ، أو يصنى الى شكاتها ؟

كيف يهنؤك ذلك العيش وانت ترى أبناء وطنك أسارى
أذلاء ، فى قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار
ماشيته الى الذبح ، فان خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف
عليهم لا تستطيع أن تمد يدك لمعونتهم وانقاذهم ، لانك قد بعهم
ونفقت يدك منهم فلا سبيل لك اليهم بعد ذلك

أذكر يا أبت تلك الأيام التى لقي فيها هذا الشعب المسكين
على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب فى الأرض على يد
فاتح أو مفتصب ، أيام كنا غرباء فى أوطاننا ، أذلاء فى ديارنا ،
نمشى فيها مشية الخائف المذكور ، وننتفض انتفاضة الهارب المتنكر ،
لأنعلم أيسقط الشقاء علينا من علياء السماء ، أم ينبعث الينا من
أعماق الأرض ، وهل يخرج الخارج منا من منزله ليعود اليه ، أو
ليرد المورد الذى لارجعة له منه أبدا الدهر

أذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون حياتنا
حتى زروعنا وضروعنا، ومياه أنهارنا، وأشعة شمسنا، فاصبحنا
ولا شأن لنا في وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها من
الشأن فيها، ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا، وكل سكونة
من سكوناتنا، حتى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا، وفلتات
السنتنا، وأحاديث آمالنا، ويحاسبوننا على النظرة واللفتة، والالة
والزفرة، والقومة والقعدة، ثم يقضون فينا بما شاءوا من أقضيتهم
فلا ينحسر ظلام ليلة من الليالي إلا عن مصلوب تهفو به الرياح
السافيات، أو طريق مرتهن في أعماق السجون

أذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلها
بحرمانه من ذلك الذي يهتف باسمه، وكلمة الدين اثماً عظيماً يذهب
بصاحبه الى أحد القبرين، اما المنشور، واما المحفور

أذكر الدموع التي كانت تذرفها الأمهات على أطفالهن
المذبوحين فوق حجورهن، والصيحات التي كانت تصيحها
الزوجات والاخوات الواقفات بآبواب السجون على أزواجهن
واخوتهن، والزفرات التي كان يصعدها اليتامى الناكلون على
حافات القبور حينئذ الى آبائهم وأمهاتهم الهالكين

أذكر ذلك كله ولا تنسه، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرف

نفسك، لأنك أنت الذى قصصته علينا ومثلته لأعيننا وقلوبنا، وأرىتنا من ويلاته ومصائبه ما لم نره، ولطالما كنت تبكى عند ذكره بكاء الطفل الناكل أمه فبكى لبكائك ونشج لنشيجك ألا تسمع هذه الاصوات المخيفة التى تحملها الينا الرياح من ذلك الجانب الغربى؟ انها أصوات الموتى من جنودك وأبطالك يضحجون فى قبورهم صائحين: واويلتاه، هاهى السماء توشك أن تنقض على الأرض، وهاهى أقدام العدو تدنو من تخوم البلقان وبطاحه، وتوشك أن تطأ بعالها قبورنا، وترنجنا من مر اقدنا، وهاهو قائدنا المحبوب برانكو مير العظيم الذى سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا فى سبيل ظفره وانتصاره يساوم عدونا فى وطننا ويحاول أن يبيعه نساءنا وأولادنا الذين تركناهم أمانة فى يده، فى سبيل الله ما سفكنا، وفى ذمة القدر ما بذلنا

ألا تسمع هذه المهمة الهابطة علينا من آفاق السماء؟ انها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم وقوف بين يدي ربهم يقولون له، حتى متى يسع حاكمك وأنا ناك هذا الخائن الغادر الذى يبيع أمة من أمم المسيح الى أعدائها وأعداء دينها ويسلم اليهم أرواحها وأعراضها، فاقض اللهم فيه قضاءك العادل واضربه الضربة التى تجعله عبرة للخائنين، ومثلا فى الغادرين،

الى آيتها الذكريات القديمة والانتصارات العظيمة والأيام
الفرح المحجلة المكتوبة بمداد الذهب في صفحات التاريخ ، مدى
الى يد مساعدتك ، وأعينني على ذلك الرجل البائس المسكين ،
وتمثلي أمام عينيه لتذكيره بنفسك وتاريخك ، غله يحمر خجلاً
عند رؤيتك ، ويقشعر بدنه رهبة من خيال الجريمة التي يريد
ارتكابها

الى آيتها الفضائل الانسانية والكمالات العالية من شرف
وعزة ، وترفع وإباء ، وأمانة وإخلاص ، تعالين الى جميعاً واجنبن
معى بين يديه ، واضرعن اليه أن ينسفكن ، ويعدل في أمركن ،
ولا يقضى للرديلة عليكم ، وقلن له : إنك إن خذلتنا ، ونفضت
يدك منا ، فلن نجد لنا من بعدك ناصرأ ولا معيناً

يا أطفال البلقان وصغار الناشئين من فتية وفتيات ، أقبلوا اليه
جميعاً : واجتمعوا من حوله ، وتعلقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا ما
تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشؤونكم تحت قدميه ،
وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب الرحيم والسيد الكريم وحناناً علينا
لا تكلنا الى أعدائنا وأعداء وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل
بلادنا في أيديهم يسومونا الخسف ويذيقونا ألوان العذاب ، فإن
أيت الا أن تفعل ، فجرد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا

فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خديه دائبة متهداً ولا ترقأ ،
وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة المائلة في مهاب الرياح
الاربع ويزفر زفرات محزنة ملتبة ، وقد قامت في نفسه تلك
المعركة الهائلة التي تقوم في كل نفس شريفة بين الواجب والشهوة ،
يتمثل له الاول في وجه قسطنطين العبوس المكنث ، فيرعد
ويضطرب ، وتترا آى له الثانية في وجه بازليد الضاحك المشرق ،
فيخور ويتضعع ، لا يستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لانه
نداء يصل الى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ، ولا أن يفات من سلطان
شهوته ، لانه سلطان قاهر جبار لا يفلت منه قوى ولا ضعيف
فوضع احدى يديه على عينيه ومد الاخرى أمامه كأنما يطارد بها
أشباحاً مخيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح بأعلى صوته :
اصمت يا قسطنطين ، اصمت يا ولدى ، لا أستطيع أن احتمل
أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه ، والدهر وتصرفاته ،
وويلي من الشقاء المكتوب ، والبلاء الحتم ، من لى بيد قوية
تنقذنى من هذا الشقاء المحيط بى ، فقد أصبحت وما على وجه
الارض أحد أجدر بالرحمة والشفقة منى ، إلعنونى جميعاً يا أولادى
وأبناء وطنى ، وانتقموا منى بافطع أنواع الانتقام ، فانتى خائن لثيم

لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ، ثم صمت صوتاً عميقاً لا ينبس فيه ولا يتحرك وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه نظرة الدهشة والذهول فغفل إليه انه يرى شعباً يتقدم نحوه فقد يده اليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليدي ! ، ألا تستطيعين أن تحلينى من ذلك القسم الذى أقسمته لك ، فقد ضعف كاهلى عن احتمال واحتمال أثقاله ، لا أريد ملكاً ولا تاجاً ، ولا عرشاً ولا صولجاناً ، بل لا أريد أن أبقى على ظهر الارض يوماً واحداً ، الموت الموت : من لى به فى هذه الساعة فأنجو من همومى وآلامى

فنهال وجه قسطنطين غبطة وسروراً ووقع فى نفسه ان الرجل قد تلوى واستخذى وبدأ يستفزع ذنبه ويستهلوه ، فترامى على عنقه واحتضنه اليه وظل يقول بنعمة الفارح المغتبط : أحمذك اللهم فقد أنقذت لى أبى ، فحنا أبوه عليه وظلا متعانقين ساعة لا يسمع فيها الا تردد أنفاسهما ، ونشيج بكائهما ، ثم افترقا بفتة واشرا أباباً عناقهما حينما سمعا فى لحظة واحدة حسيس جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشمال ، وكان ماسمعا فى هذه المرة حقيقة لا وهماً ، فارتجلا فى وقت واحد حركتين مختلفتين ، إذ وثب قسطنطين الى الراية وثبة عظمية ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثبة أعظم منها فاعترض سبيله وصرخ فى وجهه : قف مكانك ، لا تتقدم خطوة واحدة ، فأصاب

قسطنطين مثل الجنون وقال له تنح عن طريق أيها المجرم الاثم
فقد فرغ صبرى ، قال انك لا تستطيع أن تمر الا على جثتى ، فارتعد
قسطنطين و برقت عيناه وذهبت به الافكار مذهبها وقال
له : أى كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقى ! وأى قضاء
قضيت به على نفسك ! تنح عن طريق فان نفسى تحدثنى بأفطع
ما تحدث به نفس صاحبها فى هذا العالم ، قال انك لا تستطيع أن
تقتل أباك ، قال أستطيع أن أفعل كل شئ ، فى سبيل وطنى ،
إنى وقفت سبى طول حياتى على خدمتك وحمايتك والذود عنك
أيام كنت لوطنك وقومك ، أما الآن فانى أعتمد ذلك السيف
نفسه فى صدرك طيب النفس متلوج الفؤاد لانى اعتقد انى
لا أعتمده فى صدر أبى ، بل فى صدر خائن وطنى ، قال لا تنس
أن لى يداً أقوى من يدك ، وسيفاً أمضى من سيفك ، قال انى
لا أجهل ذلك ، ولكنك تقا تل فى سبيل الدناءة والخيانة ، وأقاتل
فى سبيل الواجب والشرف ، والله مطلع علينا من علياء سمائه ،
وهو الحكم العدل بيننا ، فجرد برانكو مير سيفه وهجم على
ولده هجمة قوية فجرد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى
منها ، وماهى إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضى العادل حكمه
فسقط الظالم ونجا المظلوم

فنظر قسطنطين الى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لا يعلم الا الله ما وراءها، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى صوته: رحمتك اللهم فاني لا أستطيع أن أفعل غير ما فعلت، ثم هجم على الراية فاشعل نارها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها وفي اليوم الثاني نشر الملك ميلوش على الأمة هذا البلاغ: —
(حاول العدو ليلة أمس تبليت جيوشنا وأخذها على غرة وكاد يظفر بذلك لولا أن انتهت الفرقة الاولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكومير فابلت في المعركة بلا عظميا ووقفت العدو في مكانه ساعة كاملة حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهزام العدو الى واقعه الاولى، ولكن المصاب العظيم الذي عم الجيش وشمل الأمة بأسرها هو موت قائدنا العظيم « مينشيل برانكومير » فقد وجد في أثناء المعركة قتيلا بضربة سيف في خصرته بين صخور تراجان تحت القوس الروماني، وسيحتفل بتشييع جنازته غداً احتفالاً عسكرياً جليلاً يليق بمقام شهيد الوطن وبطله العظيم
أما الذي خلفه في قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع منقذ الأمة والوطن « قسطنطين برانكومير »

﴿الضمير﴾

مضى الليل إلا قليلا وقسطنطين ساهر في فراشه لا يغمض له جفن ، ولا يطمئن له جنب ، لان مصرع أبيه في شعب تراجان لا يزال ماثلا أمام عينيه ما يفارقه لحظة واحدة ، وكان كانه يرى الجنة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتنظر اليه نظرات حادة ملتبهة ، وكان جرحها الدامي بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم ، فتار من مكانه هائجا مذعورا وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع ، فشد يده الى ذلك الجرح الموهوم المائل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد في تدفقه وابثاقه حتى ملأ أرض الغرفة جميعها وصبغ بلونه الأحمر القاني جميع ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتد فزعه وارتباعه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل فوقع مغشيا عليه

وظل على ذلك ساعة حتى انفثت حرارة دمه فاستفاق من غشيته وجلس الى نفسه يناجيها ويقول

إنني على ثقة من نفسي ، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوف الذي يساورني ! وما هذه الصور المخيفة التي تتراعى لي في يقظتي وأحلامي ! كان يجب على

أن أضرب لانه مامن ذلك بد ففعلت ، فلم ارتاب في عملي ؛ ولم
أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين ؛ ان الرجل لا يخاف إلا ذنبه ، وأنا
لم أذنب إلى أحد ، لأن الرجل الذي قتلته كان يريد أن يقتل
أمة بأسرها فأنقذتها بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أم المسيح
في أوروبا ، ألا يجوز للانسان أن يقتل الافعى دفعاً لأذاها ،
والوحش كسراً لشيرته ، واللص اتقاء لضرره ؛ اننى لم أفعل غير ذلك ،
فالى أرى وجه السماء أحمر قانياً ليله ونهاره ، ومالى أجد مذاق
الدم في كل كأس أشربها من ماء أو خمر ، ومالى لا أستطيع النظر
الى يدي خوفاً ورعباً ؛ اننى لم أقتل أبى ، ولكننى أحبيته ، لانه ان
كان يحيا اليوم في قلوب الناس حياة العظمة والمجد وكان تمتاله
آلهة معبوداً يطيف به الشعب ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه
واستلامه وكان اسمه طغراء الاسماء الشريفة المسجلة في التاريخ
فانما ذلك بفضل الضربة التي ضربته اياها . ولولا ذلك لعاش بقية
أيام حياته عيش الادياء الساقطين ، أو مات موت الخونة المجرمين
وهنا انتفض واصفروا رفض جبينه عرقا وقال بصوت ضعيف
مختنق : نعم ان ذلك كله صحيح لارب فيه ولكننى قتلت أبى ؛
ثم لم يلبث أن عاد اليه مخاوفه ووساوسه فرأى الجنة
والمصرع والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الاصوات

التي تهتف به في كل مكان « يا قاتل أبيه ، يا أكبر المجرمين ،
يا عار البشرية وشنارها » فجن جنونه ، وثار ثأره ، وعادت له
سيرته الاولى

ولم يزل هكذا ليله كله ، يهدأ حيناً ويشور أحياناً ، حتى نشر
الفجر رايته البيضاء ، في آفاق السماء ، فاستروح رائحة الانس
وشعر بيرد الراحة فأوى الى مضجعه
كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثر
لياليه منذ حدث ذلك الحادث العظيم

﴿ الازهار ﴾

دخلت ميلترا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي
الطويلة الللاء ويدها طاقة من الزهر تريد أن تقدمها اليه
فرأته مضطجعا على كرسيه مستغرقاً في نومه وآثار الدمع ظاهرة
بين أهداب عينيه وفي صفحتي خده فرثت لحاله وجلست تحت
قدميه ترقب يقظته رقبى المجوسى طلعة الشمس من مشرقها ،
فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك الازهار فانتعش وتحرك في مكانه
وفتح عينيه فرآها فابتسم وتهلل وقال مليترا : قالت نعم ياسيدى
نعمت صباحاً ونعمت جميع أيامك بكورها وأصائلها ، ثم مدت

يدها اليه بالطاقة وقالت له : قد اقتطفت لك صباح اليوم هذه
الأزهار الجميلة التي تحبها أكثر من سواها لتستريحها فتروح عن
نفسك برباها همومها وأحزانها ، فتناول الطاقة منها واستنشقتها
وتنفس تنفساً طويلاً ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة وقال لها
أعلمين يا ميلترا انني أستنشق في هذه الأزهار التي تهدينيها
الى أنفاسك الأريج العطرة ، وان الذي ينعشني ويحييني ويرفقه
عني همومي وآلامي في هذه الطاقة انما هو أريجك لا أريج الأزهار !
فارتعدت ميلترا لأول كلمة حب سمعتها من فمه وظل قلبها يخفق
خفقاناً شديداً وملك الدهش عليها عقلاً ولسانها فلم تستطع أن
تنطق بحرف واحد وظلت شاخصة اليه يبصرها ، فاستمر في حديثه
يقول ، لقد كنت أطلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنياً شديداً
حتى رأيتك ورأيت هذا الجمال المتلألئ في عينيك وشممت
أنفاسك العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك فأحببت الحياة من
أجلك ، وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك ، وأقضي بقية أيام
حياتي بجانبك ، فشكراً لك يا صديقتي ، فأنت النجمة الوحيدة
الباقية في سماء حياتي بعد ما غربت جميع نجومها وكواكبها ،
والشعاع المضيء الذي ينبعث الى أعماق سجلي المظلم الخالك فيبدد
ظلمته وينير جوانبه ويملا قلبي أملاً ورجاء ، والواحة الخصبة الخضراء

التي أُلجأ إليها كلما قطعت مرحلة في صحراء هذه الحياة المحرقة فأنا
تحت نجيلها ، وأبرد يبرد مياهاها ، قالت ليتني أستطيع أن أكون
عند ظنك بى ياسيدى ، بل ليتنى أستطيع أن أقاسمك هذه الهموم
والأحزان التي تعالجها ، أو أحتملها عنك جميعها حتى لأراك بين
يدى إلا باسمًا متطلقًا في جميع آنائك وساعاتك ، انى أمتك
الوضيعة المسكينة ياسيدى ، وليس لفتاة مثلى أن تسألك عن سبب
همومك وأحزانك ، ولكننى أستطيع أن أضرع اليك أن تسريها
عن نفسك وتهونها عليك فأنت رجل فاضل شريف وقد قلت لى
قبل اليوم إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته
في سعادة لا يهنا بمثلها الملوك في قصورهم ، قال ومن أين لك انى
رجل فاضل شريف ؟ قالت لولم تكن كذلك لما أحبتك ، فابتسم
قليلا وقال : إذن أنت تحبيننى ياميلترا ، قالت نعم ياسيدى أكثر
من كل شىء في العالم ، ولولا كرامة أمك عليك وجلال ذكراها
في قلبك لقلت لك إنها ما كانت تحبك في حياتها أكثر مما أحبك
اليوم ، فأطرق قسطنطين لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بحبيبه
سحابة سوداء قائمة فرفع رأسه وقال لها : حسبك ياميلترا
لا تذكرينى بأى مما أحسبها الآن الا ناقة على في قبرها ، تلغني
وتستعدى ربها على ، وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبنى

ويقتصف لها منى ، واخرجلتاه من نفسى يوم ألقاها فى تلك الدار
ويجمع الموقف العظيم بينى وبينها ، فارتاعت مليتزا عند سماع هذه
الكلمة وذهبت بها الظنون كل مذهب ، وظلت تنظر اليه نظراً
غريباً حائراً وقد بدأت تفهم ذلك السر الهائل الذى أعياها أمره
زمناً طويلاً وتذكر السبب فى حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد
الذى يقيمه ويقعده ويساور نفسه ويقلقها منذ قتل أبوه حتى
اليوم ، وكأنه قد ألم بما دار فى نفسها وتردد فى خاطرها فظل ناظراً
إليها بلهف وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت
الطويل انتظار المتهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه ،
حتى رآها تبتسم وتهلل وتقول له : هون عليك الامر ياسيدى ،
ولا ترتب فى نفسك ولا فى ضميرك ، فما أنت بمجرم ولا قاتل ،
ولكنك رجل شريف ، ولولا أنك كذلك لما أحبيتك ، فديده
إليها فتناول يدها وقال لها أتعديننى ياميلتزا أن تكتمى فى صدرك
كل شئ ؟ قالت نعم أعدك وعداً لا أخيس به ، قال : وشئ آخر
ياميلتزا ، قالت وما هو ياسيدى ؟ فادناها منه وضما ضمة خفيفة
إلى نفسه وقال لها : أتعديننى على الحب حتى الموت ؟
قالت نعم ياسيدى أقسم لك ، قال بم تعمين ؟ قالت بكل
ما تسكن به نفسك ، قال ضعى يدك على هذا الخنجر

وأقسمي به ، قالت أفعل على شرط واحد ، قال وما هو ، قالت
أن تُمدني إياه بعد ذلك ، قال وماذا تصنعين به ، قالت أقتل
به نفسي يوم يحل بك مكروه ، فناولها إياه وهو يقول في نفسه :
ربما حل بي عما قريب ذلك المكروه الذي تتوقعين ، فوضعت
يدها على الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والاخلاص له
حتى الموت ، فهلل فلسطين فرحاً وسروراً ونزعه من خاصرته
وعلقه في منطقتها ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها في ثغرها
قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل مامر بها في حياتها

﴿ حديث ﴾

جُرح الجندي « أورش » في إحدى المعارك فلزم بيته وتولت
ابنته « أنا » معالجته ، وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود
في الفينة بعد الفينة ، فزاره في أحد الأيام الجندي « لازار » وكان
لا يزال حارساً لقصر القائد برانكو مير والخادم الأمين لارملته
بازيليد وثقتها المؤتمن على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له « أورش »
حين رآه : هل من جديد اليوم يا لازار ؟ قال نعم قد فشل جيشنا
في الواقعة الأخيرة كما فشل في الواقعة الماضية والوقائع التي تقدمتها
ولا أعلم متى تنتهي هذه الانكسارات ، فقد تمت عدتها حتى الأمس

عشرًا ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ، أما القتلى والجرحى فهم كثيرون
لا يحصى لهم عدد ، وما بيتك بالبيت الوحيد الذى تفرق فيه
الدماء والدموع ، فى كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألمون
فقال أورش : لا ريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد فقدنا بفقد
ذلك الرجل العظيم قائدًا كان خير القواد وأبرعهم ، وأوسعهم علمًا
وتجربة ، وأعلمهم بموارد الأُمور ومصادرها ، لم يفلت النصر من يده
فى جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنتين ، حتى مات فى الواقعة
الاخيرة وسيفه مصلت فى يده ميتة البطل الشريف ، فأت بموته
الظفر والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى
يقبل بعد ادياره

فقالت له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له
جراحه : لقد قلت لى يأت قبل اليوم ان قسطنطين قائد عظيم
لا يشق له غبار ، فما هذا رأى الذى تراه فيه الآن ؟ قال نعم
كان قائدًا عظيمًا فى حياة أبيه وتحت لوائه ، أما اليوم وقد استقل
بالرأى وحده وانقطع عنه ذلك الوحي الذى كان يرشده ويهديه ،
فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح حائرًا مضطربًا لا يدري ماذا
يفعل ولا كيف يصرف وقائمه ومواقفه ، فقالت ان جيشنا لم
ينكسر قط فى واقعة من تلك الوقائع التى تذكرونها كما تنوهمون ،

لأنه لم يتخل عن مركزه ، ولم يسلم شعباً واحداً من تلك الشعوب التي يحرسها ، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم في جيوش أعدائنا أكثر منهم في جيوشنا أضعافاً مضاعفة ، وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد مياشيل خطة دفاع محض لا يحول عنها ولا يتزعزع ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو في حصونه ومواقفه ، وترك الجبال التي تحميه من ورائه ، فكثرت القتلى والجرحى في جيشنا ، وهي خطة مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائد اليأس أو المجنون ، ولا أعلم أي الرجلين هو ؟

قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فاني أشعر كما يشعر كثير من الناس ان سحته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيماً ، وأصبح حزناً منقبضاً لا تفارق الكتابة عينيه وجبينه ، ولم أر في حياتي ثأ كلاً حزن على فقيد حزن هذا المسكين على أبيه ، قال لازار : ولقد حدثني بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه في بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شيئاً هائلاً مقبلاً عليه فقالت « أنا » إنكم تظلمون قائدنا ظماً عظيماً ، فقسطنطين

أفضل القواد وأشر فهم ، وما هو بجان ولا مجنون ، فنظر إليها لا زار
شزراً وقال بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد
رايتني منه مذولى قيادة الجيش عفوه عن الأسرى الذين يقدمون
إليه وإنزاله أيام منزلة الأكرام والاعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم
ضيوف وافدون ، لأعداء محاربون ، كما رايتني منه أكثر من ذلك
اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً حتى عن زوج أبيه التي تحبه
حب الام ولدها وفلذة كبدها ، فانه مذهجر قصرها وعاش في
بيته الجديد الذي يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها الى
زيارته حتى الساعة

فقلت « أنا » : أكل أفعال قسطنطين قد أصبحت
مرعبة عندكم لا تحمل على محل حسن حتى اكرامه للأسرى المساكين
واسفاهه على ذلهم وضعفهم ؟ قال ليس هذا رأي وحدي ، بل رأى
أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم الى الموت
الزؤام عمداً لسر خفي يضمه في نفسه ، وما أحسبهم قادرين على احتمال
هذه الحالة من تطويل ، فاحتدمت « أنا » غيظاً وقالت : ان قسطنطين
أشرف مما تظنون ، وهل ترون محالاً أو غريباً أن يحزن المرء على
أبيه بعد فقدته ؟ ثم التفتت الى أبيها وقالت له بسداجة ورقة :
أقسم لك يا أبت لو أن مكروهاً أصابك من هذا الجرح الذي

في خذك لا أذن الله بذلك ولا قدره لحزنت عليك حزناً يصغر
بجانبه حزن قسطنطين على أبيه ، فابتسم أبوها وضمها الى صدره
وقال لها اتنا لانذهب في أمره يابنية حيث ظننت ، ولا نهمه
بخيانة ولا بملاأة ولكننا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس
الى قلبه فضعضه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسألة أعدائه
ومؤاتاتهم ، فأعد لذلك العدة التي رآها ، واليأس هو الخديعة
الكبرى التي يدسها الشيطان دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي
يريد قتلها والقضاء عليها

وهنا دخل بعض الجنود لعيادة أورش ، وتلاهم آخرون من
بعدهم ، واشتركوا جميعاً في الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم
سعايته ووشاياته في صدورهم ، حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين
يخون أمته ويمائى أعداءها عليها ، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا
أمره الى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهد بها الى غيره ، ثم انصرفوا

﴿ الدسيسة ﴾

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم في غرفته اذ دخل
عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه ، فانقبض صدره
واشمازت نفسه ، لانه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلاته مذ مات

أبوه حتى اليوم ، فاذن لها بعد لآى فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه وأنشأت تعاتبه فى انقباضه عنها ووحشته منها وسوء رأيه فيها . وتقسم له بجرمة ذلك الدفين الكريم الذى كان يحبه ويحبها أنها لا تضر له فى نفسها موجدة ولا حقداً ، ولا تحمل له بين جنبها غير الحب الخالص والود المتين ، ثم قالت له : إبنى برغم آلامى وأحزاني التى أعالجهامذ نزلت بى تلك النازلة العظمى حتى اليوم لم أربداً من أن آتى اليك فى هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك منها ، فالتفت إليها مندهشاً وقال : أى ساعة تريدن ؟ وماهى الشدة التى أنا فيها ؟ قالت كانتك لا تعلم أن الخطر الذى يحيط بك عظيم جداً لا قبل لك باحتماله ، وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى . ويبغضونك بغضاً لا حد له ، ولا تحذهم نفوسهم بشىء سوى تلمس الطريق إلى الوصول اليك ليقتلوك . فاصفر وجهه وقال : وماذا ينقمون منى ؟ قالت ينقمون منك مخاطرتك بهم فى تلك المعارك الهائلة التى تكاد تفنيهم وتقضى عليهم . وفشلك فى جميع الوقائع التى قت بها مذ وليت قيادة الجيش حتى اليوم . وقد امتد بهم الحقد عليك إلى سوء الظن بك . فاصبحوا يعتقدون انك خائن ممالىء للعدو ،

وانك ماسكت هذه الخطة المعوجة في حروبك إلا لتكن
 الاعداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد ، فانتفض انتفاضة
 شديدة واربد وجهه ونزت في رأسه سورة الغضب وقال : من
 ذا الذى يتهمنى بالخيانة ؟ قالت جنودك ورجالك ، قال : انهم
 كاذبون فيما يقولون ما فى ذلك ريب إن كنت صادقة فيما تقولين ،
 قالت : ما كذبت عليك قبل اليوم ، ولا غششتك فى النصيحة ،
 ولقد زادهم حقداً عليك وموجدة أن العدو قد اجتاز الجبال ليلة
 أمس ، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل الى أبواب
 العاصمة ، وسيصل بريدك الساعة فينقل اليك هذا الخبر
 المحزن الاليم ، فصرخ صرخة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة
 ووثب من مكانه نائراً وهو يقول : آه يا وطني العزيز ! وابتدر
 الباب يريد الخروج منه فأمسكت يده واجتذبتة اليها وقالت
 له مهلاً أين تريد ؟ قال أدعو جنودى وأجمع من تفرق منهم
 فى الشكنات والقلاع وأذهب بهم الى الحدود للدفاع عن القلعة
 الكبرى فالوطن فى خطر عظيم ، قالت لا تفعل فقد خرج
 الامر من يدك ، واعلم أن جميع جنودك المقيمين فى ثكنات
 المدينة وأرباضها قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا
 يأتون بأمرك ، فلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة واشرف

منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود : النفير النفير ،
الاهبة الالهبة ، فاسمع الجند صوته ورأوا وجهه حتي هاجوا
واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجه : ليسقط
الخائن ! ليسقط المجرم ! فظل يشير اليهم بيده يحاول إسكاتهم
واسترعاء اسماعهم وهم مستمرون في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون
ولا يفترون ، فعاد إلى مكانه يائساً متضععاً ليس وراءه مابه من
الهم غاية

فدنت بازليد منه وقالت له : قد علمت الآن أنني لم أكذبك
القول ولم أخدعك ، وأنني لم أقدم اليك مقدماً هذا في هذه الساعة
العصيبة إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ، فرفع
نظره اليها مندهشاً وقال أنت ؟ قال نعم أنا ، في الوقت الذي
لا أجدي فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك ،
فاصنع لما أقول : إن الملك سيزور قصرك الساعة ليستجديك
على دفع هذا الخطر الدائم ، وإن شئت فقل ليستعين بك على
الاحتفاظ بتاجه الذي يضمن به صنه بحياته ولا يحفل بشيء سواه ،
وقد علم الجند ساعة حضوره فهم ينتظرونه في هذه الساحة حتى
إذا طلع عليه في مركبه هرعوا إليه ضاحكين صارخين يتقدمهم
جرحام وزمنام ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التي يردونها

الآن ، ويصيحون بها في كل مكان ، فاما أن يصدقهم فقد
هلكت هلاكاً لا نجاة لك من بعده ، أويرتاب بهم فلا يرى له
بداً من أن يسلك سبيل الحكمة في مداراتهم ومدافعهم ،
فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها الى غيرك ارضاء لهم ، وتسكيناً
لثأرتهم . فان فعل فقد انتشرت لك في الامة قالة سوء ، لا تستطيع
أن تمحو عارها عنك أبد الدهر

فظل يرتعد ويضطرب ويردد بينه وبين نفسه : رب ماذا
أصنع فالخطب أعظم مما احتمل ، فاقربت منه ووضعت يدها
على كتفه وحنّت عليه حنو الام على رضيعها وقالت له بتلك النغمة
العذبة الجميلة التي قتلت بها أباه من قبل : نعم يا بني إن الخطب أعظم
مما نتحمل ولم يبق بين يديك الا أن تسلك تلك الطريق
التي شرع أبوك في سلوكها قبل موته ثم عجز عن الاستمرار فيها الى
نهايتها ، ففسرها وخسر حياته على أثرها . فنظر اليها مندهشاً وقال
ماذا تريدن ؟ فصمتت لحظة ثم استنجدت قوتها وشجاعتها
وقالت له : أندري يا قسطنطين لم ذهب أبوك الى شعب تراجان
وجلس تحت القوس الروماني في الليلة التي مات فيها ؟ فرجعت
الى ذهنه تلك الذكري المؤلمة وقد بدأ يفهم ما رمى اليه في حديثها
فراعه الامر وهاله الا انه تماسك وتجلد وظل ناظراً اليها نظرات

جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى في الترع الاخير فاستمرت في حديثها تقول: انه ذهب الى ذلك المكان ليستقبل الجيش التركي عند قدميه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول الى فيدين ، ولو فعل انجى الوطن من خطر عظيم ولأطفأ نار هذه الحرب التي تلهم البلاد التهاماً يكاد يقضى عليها ، ولكن اليوم ملكا جالساً على عرش البلقان ، لا تمثالا أجوف منتصباً في الميدان ، ولكنه عجز في الساعة الاخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته فما رأى سواد الجيش التركي مقبلاً نحوه حتى نسي عهوده ومواثيقه وابتدر الراية الاولى فأشعل ناراها وأيقظ الجيش من رقدته واستناره للالهبة والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال وخاض المعركة بنفسه وظل يقاوم حتى هلك

فعمج قسطنطين لتلك المرأة الغريبة التي لا يشتمل على مثلها صدر امرأة في العالم ولا رجل ، ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءها : وبعد فماذا تريدین ؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوؤه ، وخيل اليها أنه قد استخذى للأمرو واستسلم فقالت : إن العهد السلطاني لا يليك بملك البلقان لا يزال باقياً بيدي حتى الساعة وهو مزيل بتوقيع السلطان ومختوم بختم آل « برانكو مير » فلسنا في حاجة الى تغيير حرف منه أو كتابة عهد

جديد ، وقد قابلت رسول القائد التركي ليلة أمس واتفقت معه على كل شيء ، فكن أعقل من أيك وأبعد منه نظراً ، واعلم أن الترك لابد مقتحمو هذه البلاد وأخذوها أبطأ وأم أسرعوا ، فقد اجتازوا عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غداً أو بعد غداً من ذلك بد ، فخير لك أن تهادنهم وتسالمهم وتتخذ عندهم يداً تنفعك لديهم غداً وأن تفتح لهم يديك ما استغلق عليهم من أبواب البلاد بدلاً من أن يغلبوك عليها تحتفظ لنفسك بذلك العرش الذى هو عرشك وعرش أيك من قبلك لولا طمع ذلك المختلس وفضوله

ان الجنود يضجون ويصخبون ويوشك الملك أن يحضر فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك فيأمر بالقبض عليك وسجنك ، فاغضب لنفسك وافعل ما أشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجنه بعد بضع ساعات ويدين لك البلقان من البسفور إلى الادرياتيك

أما أنا فاقب لا أطلب جزاء عندك على نصحي لك وإخلاصي اليك سوى أن تمنحني لديك منزلة الام الخنون وتأذن لى أن اجلس على ادنى درجة من درجات عرشك . اخدمك وامدك برأى ومشورتي ، واستظل بظلال مجدك وشرفك حتى الموت ،

ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطاني وأرته إياه فأخذ يقرؤه وهو في يدها حتى أتمه ، فقالت له : قم الساعة وسافر الى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تفعل ذلك مضطراً ، وأنقذ نفسك ووطنك من هذا الخطر العظيم

هاهي طبول الملك تقترب منا شيئاً فشيئاً واعلم ان قلم القدرة معلق الآن بين أصبعي الله ليكتب به في صفحات الغيب أحد الحكمين ، إمالك بالصعود الى العرش ، أو عليك بالهبوط الى أعماق السجون ، فأحسن الاختيار لنفسك ولا تكن عدوها الا حرق المأفون

فرفع رأسه ونظر اليها نظرة نارية ملتهبة لورسمتها ريشة المصور الماهر لا حرقت القرطاس الذي رسمت فيه ، ثم قال لها بهدوء وسكون : قد قلت لي ياسيدتي منذ هنيهة إن أبي قد ذهب الى شعب تراجان ووقف تحت القوس الروماني ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ويأذن له بالمرور فخافه عزمه ونسى ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة في سوء ظنك به ، فانه لم يزل متمسكاً برأيه في تلك الليلة محافظاً على عهده حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء ، قالت وما الذي طرأ عليه ؟ قال طرأ عليه الموت فخال بينه وبين ما يريد ، قالت وهل تعلم كيف

مات ؟ قال نعم أنا أعلم الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه في تلك الساعة وفي ذلك الموقف ، سوى ، فارتعدت ونظرت إليه مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلاً بيد أعدائه ؟ قال لا ، بل بيد أصدق أصدقائه ، بل بيد أقرب الأقرباء إليه وأمسهم به رحماً ، فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد أن تقول ؟ قال أريد أن أقول : إنني أنا الذي قتلته بيدي جزاءً له على خيانة لوطنه ، قالت أنت يا ولده وفلذة كبده ؟ قال : نعم وأنت التي وضعت في يميني ذلك السيف الذي قتلته به ، لأنك أفسدت نفسك وقتلت شعوره وأغريته بخيانة وطنه وسلبته جوهره الشرف الثمينة التي كانت تضيء ما بين جنبيه ، وكانت أكرم الجواهر وأغلاها ، فلم أر بداً من أن أقتله لاستنقاذ الوطن من يده ، فنألى ماشئت أيتها المرأة الشريرة وتعذبي ، وتجرعي كؤوس الحسرة والندم على ما أفلت من يدك من أمانيك وآمالك ، وحسبي انتقاماً منك على جريمتك التي أجرتك إليها والى أبي والى الطبيعة أن تعلمي أنني أنا الذي خيبت آمالك ، وهدمت بيدي ذلك الصرح العظيم الذي أنفقت في تشييده أيام حياتك

نعم أنا الذي قتلته بيدي واقترفت أعظم جريمة يقتربها إنسان في العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ، ولا خطر بيالي

أن إنساناً في الوجود يقدم عليه ، ولو كان في استطاعتي أن أكشف
أمرك وأهتك السر عن جريمتك لفعلت ، ولكنني لأستطيع
أن أفعل إسفاً على سمعة ذلك الرجل المسكين الذي قضى عليه
سوء حظه أن يكون شريكاً لك في حياتك وفي جرائمك ، فعيشى
معدبة مثلي فريسة لآلامك وأحزانك ، واستنفدى ماء شؤونك
حزناً على العرش الذي فاتك ، والزوج الذي رحل عنك ، واسهرى
لياليك الطوال خائفة مرتعبة من شبح الجريمة التي اجتريتها ،
وخيال الدماء التي سفكتها ، وليطر قلبك خوفاً وهلعاً كلما ذكرت
أنك قد وضعت في يد الولد سيفاً ليقتل به الوالد ، فبات الوالد
قتيلاً ، وعاش الولد معذباً ، وتطول أيام حياتك على ظهر الأرض
لتطول آلامك وأحزانك ، حتى إذا نزل بك الموت نزل بهيكل
يأس من العظم ، قد أحرقته اللوعات ، وأضوته الحشرات ،
وافترسته الهموم والأحزان

وهنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة وهاتفون يهتفون الملك !
الملك ! فاكتاب قسطنطين وتقبض وجهه ، وتهالت بازيلييد
وتطلعت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعها في جيبتها ، ثم قالت له :
نعم انى سأعيش يا قسطنطين حزينة باكية كما قلت مامن ذلك بد ،
ولكنني لا آذن لك أن تعيش يوماً واحداً بعد اليوم على ظهر

الأرض ، حتى لا ترى بعينيك مصائبى وآلامى ، وتشمت بهموى
وأحزائى ، فقد دسست لك الدسيسة فى الجيش حتى نار عليك
ووضعت فى عنقك ذلك الغل الثقيل ، غلّ الخيانة الذى لا خلاص
لك منه ، وسترى الآن بقية ثأرى وانتقامى

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار وهو يصيح
وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يامولاي ، انه قد مالا الأعداء
علينا ، انه أفنى رجالنا ورمى نساءنا ويثم أطفالنا فأعدنا عليه ،
وانتقم لنا منه والوطن ، والملك يقول : دعونى وشأنى ، لا أصدق
شيئا مما تقولون ، ثم التفت الى قسطنطين وقال له أيها البطل
العظيم : ان الوطن فى خطر وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه
النازلة التى نزلت بنا ، وسأكون فى المعركة المقبلة جنديا من
جنودك ، أقاتل بجانبك ، وأبارك خطواتك ، ولا تبتئس بما يقول
هؤلاء القوم ، فانهم لا يعلمون من أمرك شيئا ، إنا لا نعرف
اليوم تحت سماء البلقان بطالا غيرك ، وما كنا نعرف قبل اليوم
بطالا غير أيبك ، ولا نضمرك لكما فى قلوبنا غير الاجلال والاعظام ،
لمكانكما من خدمة الوطن وحمايته والذود عنه ، أما الحظ الذى
فارقك فى تلك الوقائع الماضية فأبشر أن عهد فراقه لا يطول ،
وأنه سيعود اليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل ، وستمحو

بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت الى الجنود وقال لهم : يا أبطال البلقان وحماته ، لاتخذلوا قائدكم ، ولا تخفروا ذمته ، فهو سيدكم اليوم ، وابن سيدكم بالأمس ، واعلموا أنني لأصني الى تهمة لا أعرف لها برهاناً ولا دليلاً

فصمت القوم صمتاً عميقاً ، وساد بينهم السكوت هنيئاً ، وقد بدأت مراحل غيظهم وموجدهم تفت وتتناقص ، وهنا انفرج الجمع واذا بيازليد تتقدم رويداً رويداً كما ينساب من مكانه الأرقم نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود ، أنا التي أتهمه يامولاي ، وأنا التي أقدم لك على تهمة الدليل والبرهان ، فدهش الملك عند رؤيتها وقال الاميرة : قالت نعم يامولاي أرملة القائد ميشيل برانكوميير ، أنني أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممالأة أعدائهم عليهم ، وأقول لك انه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد في الساعة التي يريدونها فيمنحوه في مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد دعاني الساعة ليشاركني معه في هذه الجريمة التي يريد اقترافها ، ويسألني أن أساعده عليها ، فلم أبدأ من أن أرفع أمره اليك ، أما البرهان الذي تريده فها هو ذا ، ومدت يدها اليه بتلك الوثيقة ، فتناولها الملك ذاهلاً وأخذ يقرأها وهو يرتعد ويرتجف ويقول في نفسه ماذا أرى ؟

إخلاء الحدود ! اجتياز الجبال ! العرش ! التاج ! ختم برانكو مير !
يا للهول ويا للفظاعة ! ثم نظر الى قسطنطين فاذا هو تمثال جامد
لا يتحرك ولا يطرّف ، فتقدم نحوه خطوة وقال ما هي كلمتك
يا قسطنطين ؟ فصمت ولم يقل شيئاً ، فالتفتت اليه بازليدو قالت
له : أنتستطيع أن تتكرر شيئاً مما أقول ؟ فأوثفته وثاقاً لا يستطيع
معه قبضاً ولا بسطاً ، الا أنه رفع رأسه ونظر اليها نظرة غريبة
مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها ، ثم عاد الى صمته وإطراقه ، فهاج
الجند وأخذوا يصيحون : القتل القتل ، الانتقام الانتقام ، وظل
الملك يشير اليهم بيده يدعوهم الى السكون والهدوء حتى هدأوا ،
فتقدم نحوه قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله
مرة أخرى ، ماذا تقول يا قسطنطين ؟ دافع عن نفسك ، فان
سكوتك حجة عليك ، لا تصمت ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة
فاني أصدقك في كل ما تقول ، فاستمر في صمته وإطراقه وهو
يقول في نفسه : كيف أدافع عن نفسي ، وأي سبيل أسلكه الى
ذلك ، والسبل جميعها وعرة شائكة لا تقوى قدسي على اجتيازها ،
انني لا أستطيع أن أبرئ نفسي الا اذا اتهمت أبي وقد قتله مرة ،
فلا أقتله مرة أخرى ، ثم ابتسم ابتسامة المتعص وقال في نفسه
قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءني يسعي الى بقدميه ،

فلم أخشاه وأرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن يكون ، ثم رفع رأسه الى الملك وقال له ليس عندى ما أقوله لك ياسيدى فاصنع بى ما تشاء فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ، وهجموا عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه وشأنه فان أمره موكل الى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا الا أن نفكر الآن فى الطريق الى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفع هذه النازلة الملمة بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الابطال الى ساحة الحرب وأنا قائدكم

ثم التفت الى الحراس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به الى السجن حتى يفصل القضاء فى أمره

فهتف به قسطنطين وقال : لى كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يامولاي ، فدعرت بازليد وارتعد لازار واشرب القوم بأعناقهم والتفت اليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أنت تعلم يامولاي أننى جندي قديم ولدت فى ساحة الحرب وقضيت حياتى فى ميادينها ولا أمنية لى فى الحياة غير أن أموت فيها ، وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الامر والنهى فيه ، فأئذن لى أن أسير فى ركابك جندياً صغيراً ، لا قائداً ولا أميراً ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك على عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة

الا منتصرا أو محمولا على الاعواد الى حيث آوى الى منزلى الاخير
الذى لارجعة لى منه على ا كفر بذلك عن زلى التى زلتها وأنتقم
من نفسى بنفسى ، فعجب الملك لامره وظل يردد نظره فى وجهه
هنيهة وكأن نفسه كانت تحده يبراته وطهارته الا أنه لم يلبث
الاقليلا حتى زوى وجهه عنه وقال له : لا أستطيع أن أذن لك بشئ
فالموت فى ساحة الحرب منزلة لا ينالها الا الامناء المخلصون
فتنفس الجمع الصعداء وخرج الملك تحيط به جنوده وحراسه
وهو يردد بينه وبين نفسه : وارحمته لك أيها الفتى المسكين !
فتقدم الحراس الى قسطنطين فقيده وجاءت بازيايد فوقفت
بجانبه وقالت له بصوت خافت لا يسمعه سواه : نعم ، اننى سأقضى مابقى
من أيام حياتى حزينة باكية متأللة كما قلت ولكننى قد انتقم
لنفسى وحسبى ذلك وكفى ، فلم يرفع نظره اليها احتقاراً وازدراء بل رفع
رأسه الى السماء وقال : قد كنت أسألك الموت يارب فى كل حين
وأضرع اليك فيه ليلى ونهارى فبعثت به الى ولكن فى أفضم
صوره وأهولها ، فامدد الى يد معوتك ورحمتك لأستطيع أن
أشرب الكأس حتى ثماتها ، وخذ يدي فى شدتى فقد تخلى الناس
جميعاً عني ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من الآلام وحدى ،
وليس بجانبى من يخفف عني لو عني ، أو يمسح بيده دمعة من دموى ،

نفر جت ميلنزامن وراء ستار كانت مختبئة في طياته وتقدمت نحوه وجئت تحت قدميه الموثقتين وقالت له : لست وحدك يا مولاي فها، انذا ، فتهال وجهه بعد عبوسه وقال : أحمك اللهم حمداً كثيراً ، ثم خرج مع الجنود يرسف في قيوده حتى وصلوا به الى السجن فأودعوه اياه وأوصدوا الباب من دونه ، فربضت ميلنزا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تنديه وتبكيه بكاء تهتز له جوانب الارض وتتداعى له أركان السماء

﴿ التمثال ﴾

انتصر الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصاراً عظيماً كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التي كان يبشها في نفوس جنده أثناء المعركة ، فقد كان يمشى بين الصفوف بطيلسانه الاسود والصليب في يده يهتف باسم المسيح والمسيحية وينادى : دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم ان غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبداً الدهر ، وهم يستبسلون ويستقتلون ، ويصبرون للموت صبر الكرام ، حتى برقت لهم بارقة النصر فاطبقوا على جيوش العدو من كل

جانب فتقهقرت أمامهم الى ما وراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والجبال التي اجتازتها بالامس ، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالا عظيما دام عدة أيام ، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التي اجترمها والجزء الذي سيلقاه في سبيلها ، وكلهم يتمنى يجمع أنفه أن يشاهد مصرعه ، ويرى دمائه تتدفق من بين لحييه

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر في تلك القضية ، فذهب الملك ليلة المحاكمة الى السجين في سجنه وخلا به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعدائه عليها ، وحاوله في ذلك محاولة كثيرة فلم ينطق بشيء ، ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عي الملك بأمره فأمر بإخراجه من السجن الى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه وأمر أن يشد باغلاله إلى قاعدة التمثال نكابة به وتمثيلا ، ثم قال له انظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صنعت يدك بذلك البناء الذي ابتناه ، وتركه وانصرف

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر في شأنه وفي مصيره الذي صار اليه ، ثم رفع رأسه الى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كل عين فيه حتى عيون العسس والحراس فأنشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجل مجدك وعظمتك وتمثالك الشامخ
الرفيع الذاهب بعلوه في آفاق السماء.

هنيئاً لك الصيت البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد
المسجل لك في صفحات التاريخ ، وأن الناس لا يمرون بتمثالك
حتى يجثوا تحت قاعدته جثيهم تحت قدمي الاله المعبود
أترى بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبون أو أن الضربة التي
أصابتك من يدي قد حرمتك شيئاً في هذه الحياة تندبه
وتأسف عليه ؟

لقد كنت في الساعات الاخيرة من ايام حياتك ، ولم يكن بينك
وبين الانحدار الى قبرك الا بضع خطوات قصار ، فكل ما كان مني
لك انني أنقذتك من تلك الميتة الدنيئة السافلة التي كنت تريدها
لنفسك ، وقدمت اليك بدلا منها ميتة شريفة مقدسة ترمقها العيون
وتتقطع من دونها الاعناق ، وألبستك تاجاً أشرف من ذلك
التاج الذي كنت تطلبه وتسعى اليه ، وأجستك على عرش أرفع
من جميع عروش الارض ، وهو عرش التاريخ

لا تستبق في نفسك شيئاً من الضغن على ، ولا تضمر لي
في قلبك وأنت في عالم الحقيقة المجردة الذي لا يخالطه كذب ولا
رياء غير ما يجب على المريض المبل أن يضمره لطبيبهِ الذي شفاه

من دائه ، وأتقذه من شقائه ، فان كان لابد لك أن ترى انى
قد أجزمت اليك ووترتك ، فهاءذا اكفر عن جريمتى بأعظم
ما كفر به مجرم عن جريمته

أنظر يا أبت ماذا صنعت فعلتك التى فعلت بولدك ، ها هو
الغل يحيط بعنقه حتى يكاد يخنقه ، وها هى القيود تعض قدميه
وتدميهما ، وها هو السيف مجرد فوق هامته لانتطلع الشمس من
مشرقها حتى يسقط عليها فيفصلها عن جثتها ، وها هم الناس جميعاً
رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يلعنونه بالسنتهم وقلوبهم فى كل
مكان ، ويضمررون له من الحقد والبغضاء ما لو امتد إلى جسمه
لا حرقه وأحاله رماداً بارداً

أنت المجرم وأنا المعاقب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك ،
أنت المتمتع بنعمة الشرف العظيم الذى لا تستحقه ، وأنا المتسربل
بسر بال الالهانة الدائمة التى لا أستحقها ، لقد أخطأ القدر فى أمرنا
مرتين ، فرفعك من حيث تستحق الوضع ، ووضعنى من حيث
أستحق الرفع ، ولو أنه أنصف فى حكمه لينتنا لاخذ كل منا مكان
صاحبه ، فاصبح التمثال لى ، وأصبح السجن لك

هنيئاً لك مجدك وشرفك وصيتك وسمعتك ، وما أهنتك
تهنئة الهازى ، الساخر ، بل تهنئة الفارح المغتبط ، لانك أبى ،

ورئيس أسرتي ، وسيد قومي ، وحبيب الـ جداً أن يعيش أبي
عظيماً في حياته وبعد مماته

إن آلامى يا أبت عظيمة جداً لا تستطيع أن تحملها نفس
بشرية في العالم ، ولكن يهونها على أننى أموت من أجلك ، وفي
سبيل مجدك وشرفك ، وأننى لم أخرج من الدنيا حتى رأيت تمثالك
العظيم مشرفاً من علياء سمانه على جبال البلقان وهضابها كما تشرف
الشمس من أبراجها على ماتحتها

ما أنا بنادم على ما كان ، ولا خائف مما يكون ، فليأت الموت
إلى في الساعة التي يريد بها ، فقد قت بواجبي لك أولبلادى ،
وحسبى ذلك وكفى

كان لا بد لى أن أقتلك ففعلت ، ولكننى قتلتك فيجب أن
أقتل بك

كلانا أجرم وكلانا لقي جزاء إجرامه

أجرمت إلى الوطن فانتقمته له منك ، وأجرمت إلى
الطبيعة فمن العدل أن تنتقم لنفسها منى ، فما ظلم أحد منا
صاحبه ولا اعتدى عليه

إرفع رأسك أيها الرجل تيتهاً وعجباً ، وزاحم بمنكبيك أجرام
السماء وكواكبها ، فقد غسل ابنك بدمه جرمك وعارك ، فان لم

تكن شريفاً بنفسك ، فحسبك شرفاً أنك والد الولد الشريف
ولم يزل في مناجاته هذه حتى مضت هداة من الليل فالتفت
بردائه ووضع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه الى نوم طويل

✽ النهاية ✽

ازدحم الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحاماً
عظيماً ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام
المتهم والمتهم هادئ ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظر شيئاً ،
لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم وقد وطن نفسه عليه فلم يعد
يحفل به

وإنهم كذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته فأشرأبت
إليه الأعناق لسماع كلمته ، ولم يزل سائراً بين الصفوف حتى
وقف أمام المتهم فنظر إليه نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته :
يا قسطنطين برانكومير ! ان الجريمة التي اقترفتها عظيمة جداً
لا ينبغي بها قتلك وسفك دمك ، لذلك رأى مجلس القضاء أن يحكم
عليك بالحياة بدلاً من الموت ... فقاطعه الجماهير ، الموت ! الموت !
لا بد من قتله ! لا يمكن أن يعيش ! فأشار اليهم بالهدوء والسكون
حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدوا واستمروا يقول : وأن تظلّ طول

أيام حياتك مقروناً بأغلاك هذه إلى قاعدة تمثال أيك ليتردد وجهه
في وجهك ليلاً ونهارك فتموت في مكانك حياء منه وخجلاً ،
وأن يؤذن لكل مارٍ بك من عليّة الناس وغوغائهم أن يبصق
على وجهك ويصفعك على قذالك وينال منك ما يشاء إلا أن
يسلبك حياتك

فصاح الجماهير : يعيش الملك ! يحيى العدل ! يسقط الخائن !
وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلاً

هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذي لم يبك في يوم من
أيام حياته اضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ، وعلا
صوت نحيبه ونشيجه كما يفعل النساء الضعيفات في مواقف
حزنهن وتكلمن ، وما كان مثله من يبكي أو يذرف دمعاً واحدة
من دموعه لو أن الذي كُتب له في صحيفة الغيب من الشقاء كان
الوقوف بين السيف والنطع أو السقوط بين آلات العذاب تنال
من جسمه وأطرفه مائشاً ، ولكنه الشرف ، شديد جداً
على صاحبه أن تنزل به نازلةٌ مذلة ، أو يتصل به ظفر جارح من
أظفار الهوان ، فإذا شعر بشئ من ذلك هاله الأمر وراعاه ،
وخارت عزيمته ووهنت قوته ، فبكى بكاء الضعفاء ، وأعول إعوال
النساء ، ولقد رضى قسطنطين من حظه من الحياة بالموت فراراً

من العار الذى لحقه ، وهرباً من نظرات الناظرين اليه ، وموجدة
الواجدين عليه ، أمّا وقد علم أنه سيعيش والعارَ معاً رفيقين
متلازمين ، لا يفترقان ولا ينفصلان ، فلم يبق له بد من الجزع ،
ولم يبق بين يديه سبيل غير البكاء ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ،
وأخذ يردد بينه وبين نفسه : يا للبؤس ويا للشقاء ، لقد استحال
على كل شىء حتى الموت ، ثم رفع طرفه الى السماء وقال بصوت
خافت متقطع : رحمتك اللهم وإحسانك فقد أصبحت عاجزاً
ضعيفاً لا أملك من شؤون نفسى شيئاً ، فامدد الى يد عنايتك
ولطفك لأستطيع أن أنعم واجبى الى النهاية

وهنا وقف لازار فوق هضبة مرتفعة ، وكان لا يزال رأس الفتنة
وشعلتها ، وأخذ يصرخ بصوت عال قائلاً : إن رأى مولانا الملك
أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة فقد أوشكت صدورنا أن
تنفجر ! فصاح الجمهور من ورائه صيحته ، ودعوا بمثل دعوته ،
فاصفرو وجه الملك وارتجفت أطرافه ارتجافاً خفيفاً ، ثم قال بصوت
خافت متهافت : لكم ما تشاءون ، وتحول من مكانه يريد الانصراف
وهنا برزت ميلترا من بين الجماهير واندفعت نحو قسطنطين
تسبق المندفين اليه ، وهى تقول : فليبق لك أيها المسكين على
الاقل قلب واحد يرحمك ويعطف عليك ، وضمتته الى صدرها

كأنما تريد أن تقيه بنفسها . فسمع الملك صوتها فالتفت فرآها ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً ، فعجب لأمرها وأشار الى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ماخطبها ، ثم مشى نحوها وقال لها ، أتعلمين أينها الفتاة من هذا الذى تحمين؟ وما جريمته التى اقترعها؟ فرفعت رأسها اليه وألقت عليه نظرة الليث فى عينيه وقالت له : لا أعلم من أمره شيئاً سوى أننى أحبه ، ولا آذن لأحد أن يناله بمكرهه وفى بقية رمق من الحياة ، قال إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للامة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ولا بد من إنفاذ حكمه ، قالت ان الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شئ ، فى العالم ، فزقونى إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا اليه

فلمعت فى ثغر قسطنطين ابتسامة فى وسط هذه الدجنة الحالكه من الهموم والاحزان وضمها الى نفسه وقال لها : شكراً لك يا ميلاترا فقد أحييت نفسى الميتة وسريت عنى همومى وآلامى ، ذودى عنى يا صديقتى ، وصونى وجهى من العار الذى يريدون أن يلصقوه به ، فلم يبق لى فى العالم من يرحنى أو يعطف على سواك وأخذ الجماهير يصيحون : اقتلوهما معاً ، مزقوا جسيهما بالسيوف ، انثروا اشلاءهما فى الفضاء ، ثم تدفّعوا نحوها تدفع

الصخور الهائلة من أعالي الجبال، فصاحت ميلترا: أيتها الوحوش الضارية، والخلائق الساقطة، معاً أكثر عدداًكم، وعظمت قوتكم، فانكم لن تستطيعوا أن تصلوا اليه أو تلحقوا به اهانة من الاهانات التي تضمنونها في نفوسكم، فان أيتهم الآن تفعلوا فاعلموا أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم، فلم يحفلوا بكلامها ولم يفهموا غرضها واستمروا في اندافعهم وتدفعهم وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذي شخصت له الإبصار، وذهلت له العقول وجمدت لمنظره الدماء في العروق، فقد علمت ميلترا أن القضاء واقع لا مفر منه، وأن القوم لا بد بالغون من قسطنطين ما يريدون، وأن لا طاقة لها بحمايته والدود عنه، وما لها هولاً عظيماً وكبر في نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتلألئ بنور الفضيلة والكرم والظهارة والبراءة يصبح هدفاً دينياً لهؤلاء الغوغاء الشائرين، يلطمه من يلطم، ويبصق عليه من يبصق، فلما أصبحوا على مقربة منها، ولم يبق بينهم وبينها إلا بضعة وثبات، حنت عليه وهمست في أذنه قائلة: في استطاعتك يا سيدي أن تنجي نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شيء، فرفع طرفه إلى السماء، ثم ألقاه على تمثال أييه، ثم نظر إليها نظرة داممة حزينة وقال: «لا أستطيع»

فجردت من منطقها خنجرها الذي كانت قد استهدته إياه
فيما مضى ورفعته في الهواء ثم طعنته به في صدره طعنة نجلاء، وهي
تقول : مت شريفاً أيها الرجل العظيم كما عشت شريفاً ، وسأنبئك
إلى سمائك التي تصعد إليها ، فسقط مضر جاً بدمائه وهو يقول
بصوت ضعيف متقطع : شكراً لك يامياترا

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة أخرى
وطعنت به نفسها ، فترنحت قليلاً ثم سقطت على مقربة منه ،
وكان لا يزال يعالج السكره الأخيرة ، ففتح عينيه فرآها فأخذ
يسحب نفسه سحباً حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده عليها وظل
يحذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها إلى نفسه فلم يستطع فسقط
رأسه على صدرها فشعرت به فضاءت ما بين شفقتها ابتسامة
ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت في ظلمات الموت ، وظللاً على
هذه الحالة حتى فاضت نفسها

فأثر هذا المنظر الرهيب في نفوس الجماهير وسكنوا في
مواقفهم سكوناً عميقاً لا تتخلله نائمة ولا حركة ، وظلوا على
ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة الحزن
والأسف قائلاً : أيها المسيحيون ، صلوا جميعاً لهذين البائسين
الشقيين واسألوا الله لهما الرحمة والغفران

ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه ورفع القوم قبعاتهم وجنوا
حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنعمة حزينة مؤثرة كأنما هم
يبكون عزيزاً عليهم ، أو شهيداً من شهدائهم ، وما فعلوا غير
كذلك لو كانوا يعلمون

*
* *

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لآلئها أحد من الناس خمسة
وثلاثين عاماً حتى حضر بازليد الموت فظلت تهذي بها في مرضها ،
وترددها في يقظتها وأحلامها ، وتتلألم لذكرها ألماً شديداً على
مسمع من كاهنها وعوادها حتى فاضت روحها ، فعلم الناس ولكن
بعد عهد طويل وبعد أن تبدلت شؤون البلقان غير شؤونها ان
« قسطنطين برانكوفير » أشرف الناس وأفضالهم ، وأعظمهم
وطنية وإخلاصاً ، لانه ضحى أباه في سبيل انقاذ وطنه ، ثم ضحى
نفسه في سبيل انقاذ شرف أبيه ، فبلغ في وطنيته وشرف نفسه
الغاية التي لا غاية وراءها



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00386343

